الخليل وبيت المقدس في القرن ٨هـ / ١٤م
في ضوء رحلة "أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار "للمدَجّن عبد الله بن الصباح

أ. د. مصطفى وجيه مصطفى[١]

التعريف بالمؤلف صاحب الرحلة

مؤلف هذه الرحلة الحجازية يسمِّي نفسه في رحلته بالحاج عبد الله بن الصباح، ولا نجد له ذكرًا في كتب التراجم؛ لأنه لا يُنْتَسَب إلى طبقة العلماء أو الفقهاء أو الأدباء، وكلُّ ما نعرفه عنه مُقتَبَسٌ من رحلته. وأول ما نعرفه عنه من خلال هذه الرحلة أنه وُلِد ونشأ في مدينة شاطبة التي كان قد استولى عليها وعلى مدن شرق الأندلس خايمي الأول في منتصف القرن ٧ هـ/ ١٣م[٢]. وقد جاء للحجِّ في نهاية القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي بعدما صارت بلده شاطبة وكثير من بلاد الأندلس مُدَجَّنة والمسلمون فيها مُدَجَّنون .

وتُعدُّ الرحلة الأندلسية التي جعلها ابن الصباح تحت عنوان "أنساب الأخبار وتَذكِرَة الأخيار" رحلةً متميزة، ألَّفها مُدجَّن أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري وأول القرن التاسع، عاش زمنًا بين المدَجَّنين في شرق الأندلس، ثم خرج من بلاد المدَجَّنين بنِيَّة الحج بمال حلال ورثه عن أبويه، كما يقول[٣]، مع أن الفقهاء أفتوا بسقوط الحج عن المدَجَّنين لعدم الاستطاعة[٤].

والمدَجَّنون مصطلح يعنى "الذِّلَّة والصَّغار، وقد أُطْلِق على المسلمين الذين بقوا في الأندلس تحت حكم النَّصارى، وذلك من لَدُن إخوانهم الذين هاجروا إلى ديار الإسلام، ومن المعروف أن عددًا من الفقهاء أفتوا بوجوب الهجرة من البلدان التي تغلب عليها النصارى، وقد جمع هذه الفتاوى أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسى (ت ٩١٤هـ)

---

(١) باحث في تاريخ العصور الوسطى .

(٢) هناك أمثلة عديدة تدل على أنه من شاطبة حيث كثيرًا ما يضرب بشاطبة المثل فى كل تشبيهاته طوال رحلته. انظر مثلاً :عبد الله الصباح : أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار ، نشر وتحقيق محمد بنشريفة (الرباط) ٢٠٠٨م، ص ٩١ ، ١٨٧ ، ٦٢، ١٦١، ٧٢، ٥٧، ١٣١، ٨٧، ٢٠٨.

(٣) الرحلة ١٤٩.

(٤) الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المغرب .أشرف على تحقيقه: محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي،١٩٨١م، ٣: ١٣٧. وعن الممارسات النصرانية في حق المدجنين انظر: ٢: ١١٩ وما بعدها.

وسمَّاها: «أسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر»[١].

ونعته بالمدَجَّن هنا هو اقتباس لكلامه في وصفه "..بلادنا المدجلة (المدجنَة) من عمائر الأندلس لا فيهم شيخٌ تعلَّم من شيخ إلا من النَّسْخِ والكَتْبِ.."[٢] ويقول في موضوع آخر متحدِّثًا عن نفسه "... فلمَّا علِمَ الحاج المبارك أن بلاد الدَّجال (الدَّجن) المغصوبة من يد المسلمين لم يبقَ فيها شيخٌ لهذه الأشياء ولا من يعتبرها اختَصَر وأوجز الخطابَ..."[٣].

أما استخدامنا صيغة الجمع في عنوان البحث المُدَجَّنون ؛ فذلك لأن المدَجّن عبدالله الصباح ذكر أسماء مدجنيّن غيره، صحبه أحدهم في القاهرة[٤]، ورافقه بعضهم في الطريق إلى المدينة[٥] ووجد آخرين في دمشق[٦]، وعلى ذلك وجد مدجنين غيره، إلا أنه هو فقط من دوَّن رحلته ،وربما دَوّنَ غيره مشاهداته أيضًا؛ ولكن ما دونه ابن الصباح هو فقط ما وصلنا حتى الآن .

ويشير المؤلف أنه من قبيلة عربية قحطانية من الجنوب، هي قبيلة الصباحين اليمانية، وابن الصباح لا يترك أيَّة مناسبة تمر دون التنويه بأمجاد هذه القبيلة وبطولاتها، سواء في العصور القديمة أو في العهد الإسلامي، وهو يصرِّح في مواضع عديدة أن أجداده من اليمنين الصباحين الحميريين الذين دخلوا الأندلس في عهد الفتح[٧].

---

(١) حققها د. حسين مؤنس. مدريد: مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مجلد ٥ ، ١٩٥٦م ، ع ١-٢، ١٢٩.

(٢) الرحلة ، ص٢٦٦.

(٣) الرحلة ، ص ٧٦. والمقصود بالأشياء هي ممارسات النصارى في حق المسلمين من تضييق وأسر وقتل .. وغير ذلك .

(٤) ذكر ذلك أثناء مروره بباب زويلة، ووصفه زحام الناس فيه حين قال:" كان لي جبة اشتريتها من ربض شاطبة ..وجزت بها في باب زويلة مرتين، وإذا منكبها الأيمن تقطع، فقلت لصاحبي: أرأيت ما جرى لي في الجبة..."الرحلة ١٢٧ .

(٥) قال عند دخول المدينة المنورة:" ووصلنا وادي العقيق ،قال لي رفيقي أحمد الحداد من قليوجة .." الرحلة ١٦٢ .

(٦) الرحلة ١٩٧ . يذكر أنه بعدما وصل دمشق بحث عن زاوية أهل المغرب حتى وجدها ، وعرفه بعض بني جلدته هناك، كانوا فيها مجاورين متعايشين يخدمون بالنهار ويأتون بالليل . وفي القدس ذكر خبرًا مشابهًا لذلك: الرحلة ١٨٦.

(٧) الرحلة ١٥٤ - ١٥٥، ١٥٩.

وبخصوص تحديد رحلته بالقرن الثامن الهجري فإننا نلاحظ: أن الرحلة تخلو تمامًا من ذكر أية تواريخ ، فليس فيها ذكرٌ لأي يوم أو شهر أو سنة ؛ ولكن بناءً على ما ذكره من اسماء أعلام في رحلته يمكن أن نستدِلَّ على زمن صاحبها في الخليل وبيت المقدس ، وتشير الدلائل إلى أن رَحَّالتنا جاء لمصر التي منها ذهب للحجاز ثم بيت المقدس في عصر الظاهر برقوق أي في نهاية القرن ٨هـ/ ١٤م ؛ لأنه حينما تحدث عن القاهرة، ذكر أنه حضر دروس علمية للفقيه محمد البلقيني، وهو محمد بن عمر بن رسلان بن نصير الكناني البلقيني، وُلِدَ سنة ٧٥٦هـ وتوفي سنة ٧٩١هـ ، وباشر الوظائف الجليلة، وأفتى ودرَّس، وتولَّى قضاء العسكر بالديار المصرية عصر برقوق[١]. ومنها ذِكْرُه أن أمير مكة في وقت حجَّه هو أحمد بن عجلان، شريف مكة، وفي المصادر أنه استقَلَّ بالإمارة سنة ٧٧٧هـ ، وتُوُفِّي سنة ٧٨٨هـ في نهاية حكم برقوق؛ لأن برقوق توفي في بدايات سنة ٨٠١هـ[٢] ، والدليل الأخير على صحة نسب رحلة ابن الصباح لعصر الظاهر برقوق الذي حكم دولة سلاطين المماليك في مصر والشام والحجاز في نهاية القرن ٨هـ وبداية القرن ٩هـ هو ما ذكره عند حديثة عن بني هلال ببلاد اليمامة، ونجد اليمنية، حيث قال إنه نقل خبر بني هلال من "... محمد الصلدي ... مؤرخ برقوق سلطان مدينة مصر ..."[٣] والصلدي هو صارم الدين إبراهيم بن محمد، المعروف بابن دُقْمَاق، ت سنة ٨٠٩هـ ، وعلى ذلك تَمَّ تحديد فترة وجوده في الخليل وبيت المقدس بأواخر ق ٨هـ/ ١٤م.

ولم يذكر لنا كيف تمكَّن من الخروج من بلاد الدجن؛ لأن بعض الذين خرجوا من بلاد الدجن أو حاولوا الخروج منها تعرضوا للأسر أو القتل ولم ينجح بعضهم إلا بعد مكابدة كبيرة ومشقة عظيمة، ولمَّا أُجبِروا على التَّنصير أصبح خروجهم مستحيلاً كما تدل على ذلك روايات المصادر المعاصرة[٤].

---

(١) انظر ترجمته عند: ابن حجر(ت٨٥٢)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي. القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٩م ، ج٢ص٣٧٦؛ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، نشر سالم الكرنكوي. بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣م، ج٤، ص١٠٥ ؛ابن تغري بردي(ت٨٧٤هـ) النجوم الزاهرة، ط دار الكتب المصرية ،ج١١، ص٣٨٩.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة ،ج١ص٢٠٢؛ الفاسي، (ت ٨٣٢هـ)، شفاء الغرام في أخبار سلطنة البلد الحرام، القاهرة، دار إحياء الكتب، ١٩٥٦م،ج٢ص٣٢٧؛ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ٧ أجزاء، تحقيق: فؤاد السيد. القاهرة، ١٩٦٦م، ج٣ص٨٣ ؛ ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد بن محمد (ت. ٨٨٥هـ)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الأجزاء ١- ٣ تحقيق: فهيم شلتوت. مكة المكرمة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ١٩٨٤، ج٣ص٣٥٣.

(٣) الرحلة ١٦١.

(٤) انظر: الرحلة ٢٠ .

وتزداد أهمية الرحلة إذا علمنا أنها تمثِّل مشاهدات ورؤى إنسان بسيط من عامة الناس، خرج من عالم المدَجَّنين الضيق الذليل المهين، فاكتشف عالَمًا إسلاميًا فسيحًا قويًا عزيزًا؛ فدوَّن رحلَتَه للتَّعريف بأرض الإسلام المترامية الأطراف؛ لتعزيز الرُّوح الدينية في نفوس المدَجَّنين بالأندلس بعد أن خرجت أرضهم عن دار الإسلام، وأصبحت تحت النفوذ النَّصراني مع أقليَّة من المسلمين فضَّلوا البقاءَ في وطنهم، ولكنهم كانوا مهدَّدين في قِيَمِهم الدينية والحضارية. وليس أدلَّ على ذلك من إشارة صاحب الرحلة إلى صعوبة الحياة بالأندلس بالنسبة إلى المدَجَّنين، وإلى الجهل الذى أصبحوا عليه فهم "صُمٌّ بُكْمٌ"(١) كما يقول؛ لذا حرص ابن الصباح أن يعلِّم هؤلاء المدَجَّنين دينهم، أو على الأقل يذكِّرَهم بأهم تعاليمه .

وكيفما كان الأمر، خرج المُدَجَّن من بلاد الدجن إلى غِرناطة عاصمة بني الأحمر في ذلك الوقت، وآخر حصن للمسلمين في أيبيريا آنذاك ، ثم انتقل إلى سَبتَه وزار مراكش وفاس، وقصد تِلِمْسان ووَهران، ثم الجزائر وتونس فطرابُلس والإسكندرية، ووصل إلى القاهرة التي نالت اهتمامًا كبيرًا في رحلته، فوصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية في مصر في العقد الأخير من القرن الثامن الهجري، ومنها قصد مكة وأدَّى الفريضة، وبعدها زار المدينة المنورة، ثم توجَّه إلى الشام قاصدًا بيت المقدس(٢)، في خمسة عشر يومًا بلياليها، وقد مَرَّ بتبوك(٣) والعلا ومدائن صالح(٤) وعقبة الصوان(٥) ومعان(٦) والبلقاء وأريحا(٧) والطور(٨) ثم بيت المقدس، وربما ذهب أولاً إلى مدينة الخليل ثم بيت المقدس؛ لأن وصفه للخليل وما بها من مزارات

(١) الرحلة ٢٢٦ .

(٢) الرحلة ١٨٠.

(٣) تبوك: تقع بين وادي القرى والشام، وقيل بين الحجر وأول الشام على أربعة مراحل من الحجر، نحو نصف طريق الشام، وهي حصن به عين ونخيل، ياقوت : معجم البلدان، ٢: ١٤.

(٤) والعلا بضم أوله وهو جمع العليا ، اسم لموضع من ناحية وادي القرى ،بينها وبين الشام ،نزل به النبي محمد صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى تبوك ،ياقوت: معجم البلدان، ٤: ١٤٤.

(٥) مذكورة في الرحلة " عقبة السودان" والصواب ما أثبتناه وهي بين معان وذات حج ، يجد الركب صعوبة في الإقامة بها ،ولا يمكث بها لعدم وجود الماء هناك. ياقوت: معجم البلدان، ٤: ١٥٧.

(٦) معان بالفتح وآخره نون ، مدينة في طريق بلاد الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء . ياقوت: معجم البلدان، ٥: ١٥٣.

(٧) هي البوابة الشرقية للقدس، وتبعد عن القدس حوالي ٣٧ كم شرقًا ، وكانت في عصور السيادة الإسلامية من أكثر المناطق الزراعية خصوبة .

(٨) قرية صغيرة على الشاطئ الغربي لشبه جزيرة سيناء، في الجهة الجنوبية الشرقية من خليج السويس ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٨: ١٥٢ هامش (١).

وخيرات جاء قبل وصفه لبيت المقدس هذا من ناحية ،ومن ناحية أخرى ، ذكر رحالتنا ما نصه" ... سحت في جبال البيت المقدس أربعة أعوام، ونعود إليه في كل رمضان نصوم فيه..." [١]. وهذا يعنى أنه ربما ذهب للخليل عندما جاء للشام من المدينة، وظل ينتقل في أجوارها حتى جاء رمضان فذهب للقدس كي يصوم رمضان فيها؛ لذلك جاء وصفه لمدنية خليل الرحمن قبل بيت المقدس.

وهو في رحلته وضع رسمًا لما يشتمل عليه الحرم الإبراهيمي من قبور، وتناول سماط الخليل بالتفصيل، ثم انتقل بعد ذلك إلى بيت المقدس مارًا ببيت لحم، وقد تحدث عن بيت المقدس ومَنَعَتَهُ، وأهم خصائصه ومميزاته وخيراته والأسواق والأوقاف ودورها، وتخلل وصفه للمزارات وصفًا للآخر المخالف في العقيدة ،وبعد أن قضي بضع سنيين في القدس وأجوارها؛ انتقل إلى دمشق التي منها استكمل رحلته إلى بلاد أخرى، وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل في هذه الورقة.

كان أول ما دونه ابن الصباح في طريقه من المدينة إلى الشام هو صعوبة السير في الطريق من المدينة إلى القدس ،يتضح ذلك في قوله "... لما كنا بين تبوك والمعلا جرت علينا ريح عاصفة زمهرير، ومات منا أناس كثيرة خصوصًا العراة منا يبَّستهُم الريح الباردة والزمهرير من البرد الذى يحرق كما تحرق النار، وأضحت وجوه الخيل تَسْوَدُّ مثل الدخان... "[٢] والمعروف أن هذا الطريق كان مليئًا بالأخطار، وبالخصوص الثلوج[٣] التي كانت تسقط على الحاج، وتُفنِي عددًا كبيرًا منهم كما شاهد ذلك العبدري[٤]، علاوة على اشتهاره بكثرة الغُبار، وشدة البرد، وقلة الماء[٥].

(١) الرحلة ١٩٢.

(٢) الرحلة ١٨٠.

(٣) العبدري، محمد بن محمد بن علي بن أحمد، (ت. بعد سنة ٧٠٠هـ)، رحلة العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كردي، ط٢، دمشق: دار سعد الدين، ٢٠٠٥م. ٤٥٥ .

(٤) العبدري : رحلة ٤٥٤-٤٥٥"قال العبدري عن ذلك الطريق أنه :"...طريق مشاقه ،قليلة الماء جداً ، وردها على سبعة أيام .." وكان سلك جماعة من المغاربة ذلك الطريق "...فوقع عليهم الثلج وهم بالقرب من عمان، فأفنى منهم خلقًا كثيرًا ،وذكر بعض من حضر ذلك أنه قد أحصى منهم ألف وسبع مئة ..." ٤٥٥ .

(٥) انظر : البلوي، خالد بن عيسى، (ق ٨هـ) رحلة البلوي، تحقيق: الحسن السائح، المغرب، مطبعة فضالة المحمدية، د.ت. ١: ٢٧٨؛ العبدري : الرحلة ٤٥٤-٤٥٥؛ الجزيري، عبد القادر بن محمد بن القادر (ت. ٩٤٤هـ)، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، نشر: حمد الجاسر. ط١ (الرياض)، ١٤٠٣هـ٢: ١٢٥٩؛ الموسوي: رحلة الشتاء والصيف ٢٣٢.

العمران في بيت المقدس والخليل

وممَّا نال إعجابَه أيضًا العمارةُ المتصلةُ في بيت المقدس وجوارها، فذكر مثلاً عن مدينة حبرون[١] أنها وادٍ في جبل، بينه وبين بيت المقدس مسيرة من الصَّحوة إلى الظهر"، وكله عمارة حرث وقرى ونسل، وكل جبال الأرض المقدسة عمارة بخلاف جبال الحجاز.." [٢] .

وقال أيضًا "... وكل جبل الخليل بوادي حبرون الغالب فيه شجر الزيتون والعنب والزرع والقمح، وكله حجارة ولكن أرض البركة تعُمُّ أهلها بالزرع والفواكه.."[٣] وذكر أن بين الخليل وبيت المقدس من ضحوة إلى نصف .. وكلها عمارة وقرى..."[٤] وقال:" .. وبلاد القدس والخليل وجبالها خضراء.. وفيها الماء والعيون والعمايِر والأشجار..." [٥] وقال إن المسجد الأقصى جنة من جنات الأرض، حوله ثلاثة آلاف قرية عامرة، كلها جبال حرث... وعمارة عظيمة"[٦]. وقال عن بيت المقدس: ".. بلدة خصيبة في كل شيء..." [٧]. ولا شك أن كثرة استعماله مصطلح العمارة والعمران دليل على أن العمران الذي شاهده في دولة سلاطين المماليك سواء في مصر والشام أو في الحجاز والقدس ،دليل على أن هذا العمران لم يشاهده في بلد أخرى بهذه الصورة التي كانت عليها بلاد سلطنة المماليك .

الأهمية الدينية للخليل للقدس في رحلة المدَجَّن والمزارات المقدسة بهما

---

(١) حبرون اسم القرية التي بها قبر إبراهيم عليه السلام ، وهي قرية ببيت المقدس، وغلب على اسمها الخليل، ويقال حبرى، ويروى أن البناء الذي عليه من بناء سليمان بن داؤود عليهما السلام (البغدادي: مراصد الاطلاع ١: ٣٧٦) وربما يكون اسم حبرون مأخوذ من لفظ حبير عند العبرانيين التي تعني الصديق الحميم أو الخليل نسبة إلى الخليل إبراهيم عليه السلام ، وقد استُخدِم هذا الاسمُ وشاع استخدامه على سائر الأسماء بعد القرن ٤هـ بين معظم المؤرخين والرحَّالة ، وهو بلد الخليل أو بلاد الخليل التي استقرت التسمية عليها (ابن الفقيه: أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمذاني ت٣٤٠هـ/٩٥١م : مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ ١٠١. ؛ ناصر خسرو علوي، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ٢٣-٣٦ ؛ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأبصار: دولة المماليك الأولى ، دراسة وتحقيق: دوريتا كرافولسكي، بيروت: المركز الإسلامي للبحوث ١٩٨٦م . ٢١١)، وانظر المناقشة التي أوردها العبدري في رحلته عن سبب التسمية بحبرون (العبدري : الرحلة ٤٦٣-٤٦٤).

(٢) الرحلة ١٨١.

(٣) الرحلة ١٨٣.

(٤) الرحلة ١٨٣.

(٥) الرحلة ١٨٣.

(٦) الرحلة ١٨٨.

(٧) الرحلة ١٩٤.

من الأمور الجديرة بالذكر ،أن ابن الصباح حرص على إيراد تميُّز مدينة الخليل ومدينة بيت المقدس بالأماكن الدينية المقدسة، وأهميتها الدينية لأصحاب الديانات السماوية ؛ مثل غيره من الرحَّالة المسلمين والأوروبيين على السواء، الذين تطلَّعوا إلى زيارة الخليل والقدس باعتبارهما الأمل الذي ينشدونه من خلال نظرتين: الأولى نظرة تقديس على أنه المكان الذي يحتوي على الآثار المقدسة والتاريخ المقدس، وهذه النظرة تمثِّل الجانبين: المسلم، وغير المسلم. والثانية نظرة احترام وتقدير؛ لأن بيت المقدس شهدت مجاوَرَة كثير من علماء الأمة المشهورين على مر العصور، من رواد العلوم الدينية والفقهية والفلسفية واللغوية والشعرية ..وغير ذلك ،وهذا يمثِّل الجانب المسلم وحده . فعلى سبيل المثال أشار المدَجّن إلى أن مدينة حَبرون فيها قبور الخليل إبراهيم وذريته، وفيها حَرَم الخليل بوادي حَبرون وفي أرضه المقدس[١]. وكما دعَّم وصفَه للحرم المكي والحرم النبوي برسمٍ تصويري رسمه بيده للحرمين الشريفين في مكة والمدينة، فعل ذلك أيضًا مع خليل الرحمن ،الذي يسميه دائمًا في رحلته حَرَم الخليل ،فقال:"... وصَفْنا وصَوَّرْنا حَرَم الخليل.." وترك رسمًا توضيحيًا لمسجد وسِماط الخليل[٢].

وذكر ايضًا ما تختصُّ به مدينة الخليل من المَزارات والقبور الشريفة والمواضع المشهورة بالأنبياء، وخصَّ بالذكر منها، مزارَ موضع إبراهيم إلى جبريل، وفيه نزل: "يا إبراهيم أعرض عن هذا"[٣] وبجواره قرية لوط الرسول ابن أخي إبراهيم. وفيها قبره، وعليه مقام عظيم، وفي أعلى الجبل جبل حرم الخليل عليه السلام مزار قبر يونس عليه السلام ويسمَّى قرية يونس، وهي على طريق القدس[٤] كما نالت مقدسات ومزارات أهل

(١) الرحلة ١٨١ أيضاً: العبدري: الرحلة ٤٥٧-٤٥٨؛ ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت. ٧٧٩هـ)، رحلته، المعروفة بـ "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تحقيق محمد السعيد الزيني، القاهرة، المكتبة التوفيقية، د.ت.٥٠-٦٠ وقد ناقش ابن بطوطه فقهاء الخليل وبيت المقدس في صحة مسألة كون حَبرون بها قبور الخليل وذريته أم لا ٥١-٥٢ .

(٢) انظر الرسم في الرحلة: ٢٧٠؛ ويسميه العبدري :الرحلة ٤٥٧؛ ابن بطوطه: الرحلة ٥٢ حرم الخليل، ويعد الوصف الذي قدمه ناصر خسرو في رحلته أقدم وصف لمسجد خليل الرحمن، وهو وصف شامل لهذا الجامع المبارك (ناصر خسرو: سفر نامه٣٣-٣٤) وكذلك يوجد وصف لخليل الرحمن عند العبدري: الرحلة ٤٥٧-٤٩٥؛ وأيضًا : ابن بطوطه: الرحلة ٥٠-٥٣ ومكونات الحرم الإبراهيمي ووصفه الداخلي والخارجي بالتفصيل عند :علي أحمد السيد :الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية ، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٩٨م٢٨٣.-٢٨٥.

(٣) هود: ٧٦.

(٤) الرحلة ١٨٣؛ وقال ابن بطوطه: الرحلة ٥٣" فزرت في طريقي إليها -القدس- تُربة يونس عليه السلام ، وعليها أبنية كبيرة ومسجد ." ووصف قرية لوط بتفاصيل عند العبدري: الرحلة ٤٦٥-٤٦٦.

الذِّمَّة في الخليل جانبًا من رحلته ، وأشار إلى أن بين القدس والخليل قبرَ راحيل[١] أم يوسف عليها قُبَّة يدخل إليها الرجل - الزائر- واقفًا ؛ وبجوارها بيت لحم الذى وُلِد فيه عيسى عليه السلام ".. وهو اليوم مَزار للنصارى، ويعطون عليه الذهب للسلطان وكذلك كنيسة القمامة يُعطى عليها، ويدخل إليها النصارى بدينار على كل رأس.." [٢].

أما بالنسبة لبيت المَقدس وما بها من مزارات فنال مساحة كبيرة من رحلة ابن الصباح، وتحدث عن موقع بيت المقدس ومَنَعَته، وأسرف كثيرًا في ذكر فضائله، وعلَّل ذلك بأن القدس "مجمع الناس يوم المَحْشَر"[٣]. كما أن ببيت المقدس المسجد الأقصى[٤] من ضمن المساجد التي لا تُشَدُّ الرحال إلا إليها "... وكفى بهذا اللفظ أن اختارها على بقاع الأرض كلها ..." وكفى من خصائصه أمرُ اللهِ جبريلَ أن يأمر نبى الله داود عليه السلام أن يبنيه، وأمر جبريل أن يبين له حد البناء..." وممَّا أشار إليه في رحلته أيضًا أن بيت المقدس كان قبل موسى وقبل آدم الأرض المختصَّة بالتقديس وبالبركة، مثل الكعبة، فهي مخصوصة بخاصيتها وما خصَّها الله به من العناية من وقت دحية الأرض، ولكن الخلاف في البناء من سبق، والله أخبرنا على لسان نبيه محمد المختار ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[٥] ؛ ويُلاحَظ أن المُدَجَّن عبد الله

---

(١) هي راحيل بنت لابان، تزوجها يعقوب عليه السلام، وأنجب منها يوسف وبنيامين عليهما السلام ،وماتت عند ولادتها لبنيامين، ودُفنت على بعد ميل على الطريق من بيت لحم إلى القدس، ويُعرَف مزارُها بقبة راحيل: بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس ، مادة راحيل.

(٢) الرحلة ١٨٩، وانظر لمزيد من التفاصيل عن المزارات الدينية في الخليل : ابن بطوطه:الرحلة ٥١-٥٥؛ العبدري: الرحلة ٤٥٧-٤٦٩؛ الحنبلي (عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين، ت٩٢٨هـ) : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، النجف ١٩٦٦م. ٢: ٢٤ يتبع ، وكذلك ما ورد عند بعض الرحَّالة الأوربيين مثل: in J.T . (ed)Adler (Lon-،Itinerary of Obadiah 1487-1490AD ،Obadiah Jara Da Bertinoro the Itinerary of Rabbi Jacob Ben R Na-، 249; Jacob Ben R .Nathanial Cohen،don)1930. pp .234 J.T p.92 . ، in،thanial Cohen

(٣) الرحلة ١٨٤.

(٤) لفظ المسجد الأقصى يُطلَق بصفة عامة على مجموعة الأبنية المقدسة التي تشمل قبة الصخرة نفسها والقبور والتكايا والزوايا والأسبلة التي تعاقَب على بنائها الخلفاءُ من أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان(٦٥-٨٦هـ٦٨٥/-٧٠٥م) إلى السلطان العثماني سليمان القانوني، والتي تغطي مساحة تبلغ نحو أربعة وثلاثين فدانًا . ولكن المسجد الأقصى في معناه المحدود يطلَق على المسجد الذي بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان على مقربة من القبة . وللمزيد انظر: ما نقله العبدري :الرحلة ٤٦٩-٤٧٠ عن البكري ؛ مجير الدين: الأنس الجليل ١: ٨٣، ٢: ٢٤.

(٥) آل عمران: ٩٦. وانظر المسألة بالتفصيل عند ابن خلدون(عبدالرحمن بن محمد ت٨٠٨هـ)، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي. القاهرة: مكتبة الأسرة ٢٠٠٧م " فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم: البيت الحرام "مكة" المسجد الأقصى، المدينة (يثرب) ٢: ٧٨٨ - ٧٩٨.

الصباح طوال حديثه عن بيت المقدس يأتي بفذلكة تاريخية فيها خلط[١].

وقد تطرَّق أيضًا إلى تاريخ بناء المسجد الأقصى وذكر أن ".. بنيانه بنيان عفاريت سليمان المسخَّرة له، ومن بعض معجزاته، بناه بحجارة أعظم البناء، وزينه أعظم التزيين بالذهب والفضة حتى جاء بخت نَصَّر فخرَّبَه[٢] ورمى حجارته في الوادي..." وقد شاهد ابن الصباح هذه الأحجار مرمية كل حجر منها من مائة ذراع وأكثر، وأقسَم أنه شاهدَ في ركن البيت المقدس حجرًا في الركن الشرقي يأخذ الركن على وجهين، فيه ستون ذراعًا، بقي في الأساس؛ لأن كثيرًا من حجارة الأساس باقية من حجارة العفاريت والجن، والأكثر في وادى النار[٣] ،وفي وادى عَين سُلوان وقبلة البيت أيضًا حجارة يسيرة مرمية من زمان بخت نَصَّر. أما طول البيت المقدس، كما دَوَّنه في رحلته، فهو سبعمائة خطوة من الخطوات الطِوال، وعرضه ثلاثمائة وخمسون خطوة، وفي داخله مقامات ومحاريب

---

(١) انظر ١٨٧.

(٢) الرحلة ١٨٧، وملخص ذلك هو أن مملكة يهوذا- وعاصمتها أورشليم- في جنوب فلسطين كانت خاضعة لحكم الآشوريين منذ سنة ٧١٣ق.م عندما توجه إليها سنحاريب ملك آشور(٧٠٤-٦٨١ق.م)، ووصل فلسطين، ودكَّ أسوارها، واستولى على جميع مملكة يهوذا، وهزم الجيش المصري الذي كان يساندها، ثم عاد سنحاريب إلى نينَوَى (الملوك:١٩: ٣٥-٣٦؛ A: The last wars of the kingdom of Judah،Malamat ، J N E S :in.،9 1950. pp.223-224،)401 وفي عهد نبوخذ نَصَّر -الذي ذكره ابن الصباح- (٦٠٤-٥٦٢ق.م) حدثت عدة ثورات من قِبَل ملوك يهوذا على سيدهم البابلي ، كان آخرها ما قام به أحد ملوك يهوذا الخاضعين لحكم بابل، وهو صدقيا ابن الملك يوشيا (٥٩٧-٥٨٧ق.م) ضد نبوخذ نَصَّر (الطبري :تاريخ الرسل ١: ٥٣٦ وهو يذكر نبوخذ نصر باسم بخترشة ؛ Noth،M: the history of Israel ، London، 1965، (p. 536وفما كان من الأخير إلا أن حاصر أورشليم مدة سنة ونصف السنة حتى اشتد الجوع بالمدينة ، مما دفع الملك صدقيا وحاشيته ومعاونيه إلى الهرب ليلا نحو الأردن ، فتعقبه البابليون وألقوا القبض عليه ، وقادوه أسيرًا إلى نبوخذ نصر الذي قام بقتل أولاده أمامه ثم اقتلع عينيه وربطه بسلاسل وسيق إلى بابل، وحبس حتى مات هناك ، أما أورشليم فقد أمر نبوخذ نصر بتخريبها وإحراقها بالنار، وهدم جميع أسوارها، وسبي جميع أهلها اليهود، وحرق بيت الرب (الملوك الثاني ٢٤: ١٧ -٢٠ ، 7-1 :25 ، أخبار الأيام الثاني ٣٦: ١١-٢١ ، الملوك الثاني ٢٥: ٨-١٢، أخبار الأيام الثاني ٣٦: ١٧-٢١؛ وانظر أسباب قدوم نبوخذ نصر إلى أورشليم في المصادر الإسلامية : الطبري: تاريخ الرسل ١: ٥٩١؛ ابن كثير :البداية والنهاية ٢: ٣٨-٣٩ ؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٢ ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وغيره . بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م ١١؛ وانظر المزيد عند: Noth; the histort ،p. 286-287

(٣) ذكره العبدري: الرحلة ٤٦٩؛ ابن بطوطه: الرحلة ٥٤،باسم وادي جهنم، وأعَدُّوه ضمن المشاهِد المباركة بالقدس الشريف وقالا :".وادي جهنم في شرقي البلد ،على تل مرتفع هناك ، بنية يقال :إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء.."

وقِباب، وقُبَّة الصخرة القبلة[١] المنسوخة صلى إليها جميع النبيين[٢].

قال أيضًا: إن "... على هذا البيت المقدس من قبور الأنبياء المشهورة وغير المشهورة: قبر إبراهيم وذريته، وقبر يعقوب وذريته، وقبر موسى بن عمران بالكثيب الأحمر بمدينة أريحة، وقبر النبى شمويل، وقبر النحاس بن هارون أخي موسى، وقبر عُزير الذى أشركت به اليهود، ومن قبور الصحابة قبر عبد الله بن الجراح، وهو يقصد أبا عبيدة ابن الجراح، أي عامر بن عبد الله بن الجراح، وقبر مُعاذ بن جبل، وقبر جَعفر بن عبد المطلب، وقبر زيد بن حارثة، وقبر زيد بن أرقم، وقبور أهل الكهف في فجوة بمدينة الرَّقيم ببلاد البَلقاء..." [٣]، وذكر أن ببيت المقدس أيضًا من المزارات " قبر رابعة البدوية[٤] ووراءه قبر العزيز بن شراج الذى نزل فيه ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ...﴾ [٥].

وقد تناول رحَّالتنا مزاراتٍ أخرى شاهدها في القدس، منها قبر مريم ابنة عمران، وقبور ذرية زكريا في أرض الساهرة، وذكر أن عليها كنيسة من زمان الروم "بيَّضتها المسلمون وغَسلَتها" وعن كيفية التنظيم والزيارة إليها قال إن على هذه الكنيسة رجالاً يفتحون ويغلقون أبوابها، ومَزارُها يوم الأربعاء، وقبرها وقبور ذرية زكريا كانت قبل البناء

---

(١) وصف العبدري: الرحلة ٤٧٠-٤٧٢ قبة الصخرة بتفاصيل كثيرة ، وهذا المسجد من بناء الخلية الأموي عبد الملك ابن مروان سنة ٧٢هـ/ ١٩١م حول صخرة المعراج المشرفة وقد رصد عبدالملك لبنائه خراج مصر لسبع سنين، وشرع البناءون في البناء سنة ٦٦هـ٦٨٥/م وفرغوا منه سنة ٧٢هـ٦٩١/م وبقي من المبالغ مائة ألف دينار أمر بها الخليفة عبدالملك أن تسبك ذهبا وتفرغ على القبة والأبواب انظر: الهروي: أبو الحسن علي بن أبي بكر ت ٦١١هـ الإشارات إلى معرفة الزيارات ،تحقيق جانبين سورديل ، دمشق ١٩٥٣م. ٢٥-٢٦ ؛ووصف قبة الصخرة بالتفصيل عند: سيد عبدالمجيد بكر: اشهر المساجد في الإسلام - البقاع المقدسة، جدة ١٩٨٠م٢٩. ؛ فاروق عزالدين :القدس تاريخيا وجغرافيا ،القاهرة- الانجلو مصرية ١٩٨١م ٦٩-٧١ . ويرى أحد الباحثين أنه من المحتمل أن يكون الخليفة عمر بن الخطاب عند زيارته لمدينة بيت المقدس سنة ٦٣٨م قد أقام مكانا للعبادة من الخشب أو الآجر على تل موريا الذي قام عليه من قبل معبد سليمان ثم معبد وثني ثم كنيسة مسيحية .ولما أحس عبد الملك ابن مروان بحاجته إلى مركز للعبادة تعلو قيمته على كنيسة القبر المقدس وينافس المسجد الحرام في مكة الذي كان إذ ذاك في يد منافسه عبدالله ابن الزبير ويصرف إليه جماهير الحجاج، فإنه أسس في نفس الموقع ببيت المقدس قبة الصخرة التي تسمى خطأ "مسجد عمر" وعلى ذلك فإن القبة تقوم على بقعة مقدسة. انظر: فيليب حتى: تاريخ العرب : ترجمة محمد مبروك نافع ،ط٣، القاهرة ١٩٥٣م. ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) الرحلة ١٨٧ ، ١٨٨.

(٣) الرحلة ١٩٤وعن المزارات الأخرى بالتفصيل انظر: الهروي : ٤: ٢٧.

(٤) منسوب إلى البادية، وهو خلاف رابعة العدوية الشهيرة : ابن بطوطه: الرحلة ٥٨وقال العبدري :الرحلة ٤٦٩ بالباء منسوبة إلى البادية ، وقال الهروي: الإشارات ٢٨ إنها زوجة أحمد بن أبي الحواري، ومقامها بالخليل.

(٥) البقرة : ٢٥٩.

عليها مغارة إذا دخلت لا ترى شيئًا إلا أنه يُوقَد عليها يوم المَزارِ شمع على قبرها[١].

هذه المعلومات التي دوَّنها ابن الصباح تعتمد على تراكم معرفي كوَّنه الرجل من مجاورته في بيت المقدس بضع سنين؛ لذا جاءت رحلته وثيقةً أثريةً وتاريخيةً لتلك البقاع وأحوالها في نهاية القرن الثامن الهجري. فقد عاش الرجل وَسَط أهل هذه البقاع، وعرف عاداتهم وما يحبُّون وما يَبغَضون، والعزيز عليهم ..، وغير ذلك .

وفي هذا الصَّدد ذكر أن أرض بيت المقدس فيها "التراب بالتبر، حيث يُشترى القبر بأغلى ثمن، وفي كَرْم عنب مقدار مرجع من الأرض يُعطَى لصاحبه في كل سبعة أشبُر عن قبر دينار في كل شبر ولا يرضى، يبتغون ذلك الفضل بأرض الساهرة لتحقُّقهم بها أنها موضع المَحْشَر[٢]. واللافت للنظر أن نصَّ الرَّحَّالة يشير إلى الطمع في بيت المقدس منذ القدم، والتَّهافُت على أخذها بطرق عدة من قِبَل غَيرِ أهلها من ناحية، كما يشير إلى اعتزاز المقدسيين بأرضهم منذ القدم والمحافظة عليها، وعدم التفريط في ترابها مهما كانت المُغرَيات من ناحية أخرى.

الحركة الإنتاجية في الخليل والقدس

بدأ ابن الصباح حديثه عن مدينة الخليل بأنَّ بها ثلاثمائة وستون قرية للحرث والزرع والإطعام، فاقتصاد بلاد الخليل يعتمد أساسًا على الزراعة ، وكانت بلاد الخليل مضطرة للاعتماد على مواردها الذاتية للحصول على الغِذاء، مثل القرى الريفية المجاورة ، وذلك من نتاج الأراضي الزراعية القريبة منها ، التي أشار إليها ابن الصباح [٣]، والتي دائمًا ما يؤكد على أنها كلها حجارة، ولكن أرض البِركة تعم أهلها بالزرع والفواكه[٤].

---

(١) الرحلة ١٨٤، وعن المزارات اليهودية والمسيحية بالتفصيل انظر: التطيلي، بنيامين، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حداد. ط١، أبو ظبي: المجمع الثقافي ، ٢٠٠٢م. ١٠٥-١٠٦؛ بورشارد من جبل صهيون : وصف الأراضي المقدسة ١٢٣٢م، ترجمة: سعيد البشاوي. عمان: دار الشروق ،١٩٩٥م. ١٢٦؛ John of C., (ed) Wilson , Description of the holy land by John of Wurzburg 1160-1170A D.Wurzburg 246; Meshullam Ben man-, 238, p. 236,p. 58; Obadiah, 1890, London, vol 5,in :ppts,W , (London) 1930,in J T,Itinerary of Rabbi meshullam ben menahem of 1481 (ed) Adler,ahem 190-191,p.189 ؛ مجير الدين : الأنس الجليل٢: ٢٧، ١٠٠، ٣٢١، ٣٢٩.

(٢) الرحلة ١٨٤ .

(٣) لا يتسع المجال هنا لتتبع الحالة الاقتصادية لبلاد الخليل ، وقد كفتنا بعض الدراسات مؤنة ذلك منها: علي أحمد السيد: الخليل والحرم الإبراهيمي ٣٣١-٣٤٠؛ كما أن دورنا هنا هو تناول ما ذكره ابن الصباح وتفسيره كلما كان لذلك داع.

(٤) الرحلة ١٨٣؛وانظر : Obodiah ،op.cit ،p. 239؛ مجير الدين : الأنس الجليل ٢ : ٨١

وذكر أن على الجبال عَسَل الخَرُّوب، يعملون منه حلوى بيضاء مثل عسل النحل طيبة[١]، وهو هنا يشير إلى الصناعة الغذائية المشهورة التي اشتُهرَت بها القرى والمدن الفلسطينية في عصر سلاطين المماليك، والتي وصفها كثيرٌ من الرحالة، ومنهم على سبيل المثال ،ابن بطوطة، وسمَّاها حَلواء الخَرُّوب ، إذ تُصنَع بها وتُجلَب إلى دمشق وغيرها ،وقال ابن بطوطة إن كيفية عملها أنْ يُطبَخ الخَرُّوب، ثم يُعصَر، ويؤخذ ما يَخرُج منه من الرُّبِّ ،فتُصنَع منه الحَلواء ،ويُجلَب ذلك الرُّبُّ أيضًا إلى مصر والشام[٢] . وممَّا دوَّنه أيضًا أن كل جبال الخليل بوادي حبرون الغالب فيه شجر الزيتون والعنب والزرع ؛ وكله حجارة، ولكن أرض البِركَة تَعُمُّ أهلَها بالزرع والفواكه[٣] وكأنَّه يربِط بين قُدسيَّة الخليل وبيت المقدس، وبين إزهار المحاصيل، وزراعة الأرض الجبلية بهما.

وقد أشار إلى صناعة غذائية أخرى وهي صناعة طَحن القمح؛ لكي يتم إنتاج رغيف الخبز، وشاهد أن أهل الخليل والقدس ".. أرحيتهم بالجمال والخيل والبغال.."[٤] وكانت المطاحن في عصر سلاطين المماليك على نوعين : إما مطاحن عامة يشترك فيها أهل كل ناحية، أو مطاحن خاصة يمتلكها الموسرون من الناس في بيوتهم لطحن غِلالهم[٥]، وكان الطحن يتم في الطواحين العامة بالأجر، وكان يُزاول مهنة الطحن طحَّان متمرِّس، يعاونه صَبِيٌّ يتعلم منه كيفية سير العمل في الطاحونة، وكان رأس الصناع الموجودين في الطاحون يُعرف بالمُدَوْلِب في الطواحين أي الشخص الذي يديرها[٦]. وقد كان المتَّبع عند وصول القمح إلى الطاحونة أن يقوم صاحب الطاحون بوزنه؛ للتأكد من صحة وزن القمح، ثم يقوم هو ومن معه من عمال بغَرْبَلَة القمح من التراب وتنقيته من

---

(١) الرحلة ١٨١.

(٢) ابن بطوطه: الرحلة ٥٦.

(٣) الرحلة ١٨٣؛وانظر : Obodiah , op.cit, p. 239؛ مجير الدين : الأنس الجليل ٢: ٨١.

(٤) ١٩٤ .

(٥) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن بكر (ت. ٩٠٢هـ)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق: لبيبة إبراهيم، ونجوى مصطفى. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٧م. ٣: ٣١ ؛ ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد، (ت. ٩٣٠هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى. ط٣، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٨م ١ق١ : ٧٥٨.

(٦) ابن الصيرفي، علي بن داود الجوهري (ت. ٩٠٠هـ) : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي. القاهرة: دار الكتب والوثائق، ط٢. سنة ٢٠١٠م. ٣ : ١٢٥-١٢٦ ؛ العيني، بدر الدين محمود، (ت. ٨٥٥هـ): عقد الجمان ، حوادث من ٨٢٤- ٨٥٠هـ، تحقيق: عبد الرزاق القرموط. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٩م، ص٣٢٤.

الطين، وتنظيفه من الغبار قبل طحنه بالماء[١]. وكان طاحون الغلال عبارة عن رَحاء يتكون من قُرصين، وهما حجران: يعتلي أحدهما الآخر في وضع أفقي - العلوي منها أصغر من السفلي ويتحرك في حركة دائرية، بينما السفلي منها ثابت لا يتحرك؛ ويستمد القرص العلوي حركته من حركة ترس سفلي صغير يُوضَع أسفل الرَّحاء وهذا التُرس يستمد حركته من حركة تُرس خشبي كبير يديره حُصان في مدار دائري أعلى من هذا الترس، ويصف القَلْقَشَندي تركيبه وإدارته بقوله: " ... فأما الطواحين، فإنها كانت معلَّقة، ومداراتها أسفل وطواحينها فوق كما في السواقي، حتى لا يقارب الدقيق ذيلَ الدواب..."[٢]. وكانت المطاحن العامة تضم عددًا من الصبيان والطَّحَّانين، وكانت مهمة هؤلاء الصبيان تسلم القمح من البيوت التي تريد طحنه؛ فكانوا يأخذونه منهم بالوزن، ثم بعد طحنه يعيدونه إليهم في بيوتهم مطحونًا دقيقًا[٣].

ومما ضَمَّته رحلة ابن الصباح عن بلاد الخليل أيضًا أن جبالها خضراء مثل الزمرد الأخضر ،وفيها الماء والعيون والأشجار والعمايِر، كما وصفها بأنها "بلاد الثلج والمطر"[٤] وذكر أن مَشرَب أهل مدينة الخليل من ماء عين يأتي من رأس الجبل، يسوقونه حتى يدخل مدارج الحرم الشريف[٥].

سِماط الخليل[٦]

تحدَّث رحَّالَتُنا عن مَعلَم مشهور من معالم الخليل، ألا وهو سِماط خليل الرحمن

---

(٦٣) الشيزري(ت٥٨٩هـ) نهاية الرتبة في طلب الحِسبَة، تحقيق: السيد الباز العريني القاهرة، ١٩٤٦م. ٢٢، ٢٤ ؛ ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، (ت. ٧٣٧هـ)، المدخل إلى الشرع الشريف، القاهرة: دار الحديث ، ١٩٨١م . ٤ : ١٧٠-١٧٥.

(٦٤) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت. ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر، ٢٠٠٤م. ٣ : ٤٨٠ .

(٦٥) ابن الحاج: المدخل ٤ : ١٧١ ،١٧٢ ،١٧٦.

(٦٦) عن الثلج بالتفصيل وأماكن وجوده ونقله وطرق جلبه انظر: حجازي عبد المنعم سليمان: الثلج والثلاجون في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ،٢٠١١م. ٢٥٩-٢٩٥.

(٦٧) الرحلة ١٨٣.

(٦٨) يعود أصل ذلك السماط أو الضيافة إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام ؛ حيث كان إبراهيم إذا أراد أن يأكل خرج ميلا أو ميلين يلتمس من يأكل معه؛ لذلك كان يُكَنَّى أبا الضيفان، وينقل مجير الدين الحنبلي أن إبراهيم زاده الله في المال والخدم، فاتَّخذ بيتا لضيافته، وجعل له بابين يدخل الغريب من أحدهما ويخرج من الآخر . مجير الدين: الأنس الجليل ١: ٤٦-٥١.

وربما تكون رحلته هي الرحلة الوحيدة التي انفردت بوصف مفصل لسِماط الخليل[١]، ويُعَدُّ السلطان الظاهر بيبرس ، المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك، هو واضع اللبنة المملوكية في الاهتمام بأمر سِماط الخليل، ففي عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م أمر بيبرس بترتيب سِماط خليل الرحمن وأمر الرواتب للمقيمين والواردين "...وكان قد بَطُل ذلك من عدة أعوام كثيرة..."[٢] وحافظ على ذلك من جاء بعده من سلاطين المماليك وزادوا عليه الأوقاف والرواتب[٣] ولعل من المفيد أيضًا أن نترك رحَّالتنا يشرح لنا ما صوَّرَه بعينيه في هذا الأمر، ثم نُفسِّر ما يحتاج إلى تفسير، قال الحاج المدَجَّن عبد الله الصباح: "... وسِماط خليل الرحمن مشهور، وعلى هذا السِّماط اثنا عشر ألف رغيف تُصرَف كل يوم على الأغنياء والفقراء، والداخل والخارج من أهل البلد وغيرهم، ويفرقونها وقتَ الضُّحَى الأعلى على أهل الرواتب والمراتب والفقهاء والعلماء والقراء وخُدَّام الحَرَم الشريف، وأهلُ بلدة الخليل يأخذون الراتب من سِماط الخليل الكبير والصغير، والمرأة والبنت، والذكر والأنثى، فكل أهل مدينة الخليل مرتَّبون في خبز الخليل، يأخذونه وقتَ الضُّحَى الأعلى، والواردون يأخذون في وقت العصر، فبعد صلاة العصر يُفَرَّق بالسِّماط العدس والزبيب والسلق في الخضرة ويأخذ الوارد رغيفين اثنين ساخنين، وزلافة (طبق) عدس مطبوخ بالقديد والسلق ويصب عليها الزيت، وبعد صلاة الصبح أيضًا زلافة بدشيش[٤] القمح مطبوخ بالإدام وأيضًا بعد صلاة الظهر من ذلك الدشيش المذكور. وسِماط الخليل ينصب ثلاث مرات كل يوم كما ذكرنا، وأهل الراتب والمجاورن يأخذونه وقت الضُّحى الأعلى كل واحد على قدر راتبه، وعليه رجل واحد يعرفهم الكل، وإن كانوا ألفًا يميزهم تمييزًا بينًا بالاسم والعين، ولا يُشكَل عليه منهم أحد، ولا يقدر يعاود مرتين إلا ويعرفه، رجل محافظ على الأشياء كلها، مأمون عليها يُعطى ولا يغلَط، بارك الله فيه

---

(١) كان المقدسي قد زار الخليل في النصف الثاني من ق ٤هـ/ ١٠م ، وشاهد في الخليل" ضيافة دائمة، وطباخ وخباز، وخُدَّام مرتبون يقدمون الطعام لكل من حضر من الفقراء والأغنياء" أحسن التقاسيم ١٧٣ . وهناك إشارات أخرى لغيره من الرحَّالة لا تزيد في محتواها عما ذكره المقدسي ، أما ابن الصباح فربَّما هو الوحيد الذي تناول السِّماط بالتفصيل من إعداد وترتيب واتفاق وكيفية التناول والتموين ..وغير ذلك

(٢) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت. ٨٤٥هـ) : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، وسعيد عاشور. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط٣ ، ٢٠٠٩م. ١ : ٤٤٥، ٥٠٥

(٣) انظر بعض مظاهر اهتمام سلاطين المماليك بأمر سِماط الخليل عند: مجير الدين :الأنس الجليل ٢: ٧٩، ٨٩، ٩٠، ٩٣، ١٦١، ١٦٥، ١٦٦، ٢٠٨-٢٠٩

(٤) الدشيش: طعام مؤلف من القمح المسلوق يُجرَش ويُدَش ويطبخ ويوزع على الفقراء، وكان مكان الدشيشة أو الدشيش بجوار المسجد الجاولي من جهة القبلة، وفيها مطبخ إعداد الدشيشة للفقراء والمجاورين . مجير الدين: الأنس الجليل ١: ٦٢-٦٣

من رجل..." (١).

ومما ذكره المُدَجَّن يتَّضح أمور عديدة ،منها : أن كمية الخبز التي كانت توزَّع يوميًا إبان وجوده وصلت ١٢٠٠٠رغيف، علاوة على الأطعمة المصاحبة ،هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ذكره أن التوزيع والإطعام شمل كل أهل الخليل والواردين عليها يتضح أن أهل الذِّمَّة كان لهم نصيب من ذلك السِّماط أيضًا ؛ كما يتبين التنظيم الذي كان متبعًا في توزيع الوجبات الغذائية ، فأهل الخليل يتناولون وجباتِهم في وقت معلوم، والواردون في وقت معلوم آخر ثلاث مرات يوميًا من ناحية أخرى .

والجدير بالذكر، أن العُمَري أورد معلومات عن الكميات التي كانت تُستهلَك في هذا السماط أثناء زيارته للخليل في ذي لحجة سنة ٧٤٥هـ تتشابه مع ما ورد عند ابن الصباح، حيث قال:"...أخبرني بعض المباشرين أن بعض ليالي العشر من هذه السنة فرَّقوا زيادة على ثلاثة عشر ألف رغيف، وأن أغلب أيام العام ما بين السبعة آلاف والعشرة آلاف، ويفرَّق مع الخبز طعام الزيت والسُّمَّاق، وفي بُكْرَة النهار يُطبَخ أيضًا على قدر من الدشيش، وفي بعض أيام الأسبوع يُطبَخ ما هو أفخر من ذلك .." أما مؤرخ القدس المشهور مجير الدين الحنبلي (ت٩٢٧هـ) فذكر أن السِّماط في أيامه كان يُعمَل فيه من الخبز ١٤٠٠٠رغيف، وربما تصل ١٥٠٠٠رغيف يوميًا(٢) وهو ضعف العدد الذي ذكره العمري، ومن هذه النصوص التي أوردها العمري وابن الصباح ومجير الدين، والتي تمثِّل العصر المملوكي كلَّه في أوله، وفترته الوسيطة، وآخره ،يتَّضح عِظَم ما كانت توليه الدولة المملوكية من رعاية لهذا السِّماط والعمل على تحسين تمويله المادي والعيني من ناحية، كما تُبيِّن أن الاهتمام المملوكي بهذا التحسين في التمويل المادي والعيني لضيافة الخليل ظلَّ حتى أواخر أيام الدولة من ناحية ثانية، وذلك يتماشى مع الاهتمام بالواجهة الدينية التي كانت إحدى وجهي الفلسفة السياسية للدولة من ناحية ثالثة، ومن ناحية رابعة ،تتَّضح الزيادة المستمرة في أعداد الواردين والمجاورين في القدس آنذاك، وهو

(١) الرحلة ١٨٢.

(٢) العمري :دولة المماليك ١١٠؛ مجير الدين: الأنس الجليل ١: ٦٣، هذا وقد أشار العمري إلى موظفي ضيافة الخليل بأنهم يعملون على خدمة السماط ليل نهار ، حيث يقومون بغربلة القمح وطحنه وعجنه وخبزه ، فضلا عن إحضار مستلزمات إيقاد الأفران " ولم يزل على هذا مدى الشهور والأعوام والليالي والأيام لا ينقطع له مدد" العمري: دولة المماليك ١١٠؛ ابن شاهين، غرس الدين خليل، (ت. ٨٧٢هـ)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر: بولس راويش. باريس، ١٨٩٣م٢٤. . وقدر ميشولام الدخل السنوي للضيافة بخمسة آلاف دينار ذهبي يأتيها من تبرعات المسلمين p.186.op.cit،meshullam؛ كما أقر المستوطن اليهودي أيضا عوبديا جاريه بأن المسلمين القائمين على السماط لا يفرقون في تقديم الوجبات بين مسلم وغير مسلم op.cit،Obodiah، .p. 233.

الأمر الذي يتوافق مع مكانة القدس والخليل في وجدان الأمة .

وفي نفس الإطار، أشار المدَجَّن إلى منتجات بيت المقدس بأنها جَنَّة من جَنَّات الأرض تحت السماء والماء والهواء، وكثرة الطعام والخضرة والعمارة الياسرة، ليس ذلك فحَسْب، بل قال: إن على بيت المقدس من قبليه وشرقيه وشماله ثلاثة آلاف قرية عامرة كلها جبال حرث ونسل وأشجار وزيتون وشجر عنب، وفيها الخِصب والرخاء والفاكهة[١]، علاوة على شجر الزيتون الكثير، وشاهد المقدسيين وهم يعصرون الزيتون ،المنتشرة أشجاره في بيت المقدس وأجوارها، ويستخرجون منه زيتًا يُستخدم في الطعام وفي علاج بعض الأمراض أيضاً[٢]، وقال:" إذا قعدت في ذلك الحرم الشريف زال عنك هَمُّ الدنيا : الماء الطيب، والهواء، والخضرة، بلدة خصيبة من كل شيء، كثيرة الفواكه ،كثيرة ألوان الطعام"[٣]، وعن مشروب أهل القدس، فذكر أن هذا الحَرَم المقدس كان يجيئه الماء من جبال الخليل، ولكن ضعفت الملوك وخربت الساقية بعد أن كان الماء يجرى في جميع الحرم المقدس، إلا أن وقت وجوده صار الناس يعتمدون في توفير المياه على أجباب – البئر– كثيرة من ماء الثلج والمطر ما يكفي مدينة بيت المقدس خمسة أعوام[٤].

الأسواق والمعاملات المالية

وإذا ما انتقلنا إلى صوة اجتماعية /اقتصادية أخرى في رحلة المُدَجَّن ، سنجده يذكر أن مدينة القدس كافية عن غيرها، من كل شيء، لها قيسرية مبنية من زمان الروم، لا يرى فيها في زمن الشتاء لا طين ولا وحل وفي كل عيد تزين الأسواق والحوانيت بحُلل الحرير ثلاثة أيام في عيد الفطر وثمانية أيام في عيد النحر، وتبقى الحوانيت مفتوحة بالليل والنهار موقودة، تشعل إلى الصباح[٥].

هذا النص له دلالات عديدة ففي قوله: «إن مدينة القدس كافية عن غيرها في كل شيء»، إشارة للمنطقة الخصبة الواسعة التي تحيط بيت المقدس، وتقوم بتزويدها بكل حاجاتها من الفواكه والحبوب والزيوت[٦]، وهو إشارة إلى مصادر التموين الغذائي لبيت

(١) الرحلة ١٨٨.
(٢) الرحلة ١٨٩.
(٣) الرحلة ١٩٦.
(٤) الرحلة ١٩١.
(٥) الرحلة ١٩٥ .
(٦) انظر عن ذلك الدراسة التي قدمها: Lees، Robinson: Village life in Palestine، London، 1905، p.93-155.

المقدس، وكذلك الوظائف التسويقية للأسواق الريفية، فقد كان القمح مثلاً ينقل إلى أسواق القدس من الرملة والسهل الساحلي، والزيت من نابلس والخليل، والتين والرمان وزيت السيرج والبطيخ والعنب من الرملة ونابلس والقرى المحيطة بالقدس، أمَّا الأرز فمن بيسان، والموز والسكر فمن أريحا والأغوار(١).

ولا شك أن وجود الأسواق ساهم في رواج التجارة الداخلية ببيت المقدس، إذ اشتهرت القدس بأسواقها الكثيرة وأبنيتها العالية وصناعاتها العديدة، وكذلك تنوُّع الإنتاج الغذائي بها(٢). يتضح ذلك في قوله: " من كل شيء لها قيسريه" والقيسريه أبنية تقوم بمهمة الأسواق، بها حوانيت تؤجَّر للتجار متخصصة، للبيع والشراء ،ويخزن التجار بضائعهم فيها إذ كانت أسواق المدن والبلاد التابعة لدولة سلاطين المماليك - وغالبًا كل المدن الإسلامية في عصور السيادة الإسلامية - متخصصة، فكل سوق اختص بسلعة معينة: ففي القدس يوجد سوق القطانين، وسوق الخضر، وسوق القماش.. وغيرها من الأسواق المتخصصة في بيع سلعة معينة(٣).

أما قوله "قيسرية مبنية من زمان الروم" فذلك القول يرجح لنا أن تكون مدينة بيت المقدس قد تغيرت عن غيرها من المدن الأخرى بما يمكن أن نسميه "السوق ذات الأنشطة المتعددة" في ذلك الوقت، حيث تشير بعض المصادر المعاصرة إلى أنه وجد بها "الأسواق الثلاثة المجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل، وهي من بناء الروم(٤)، وقد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مثل هذه الأسواق التي أشار إليها أنها من بناء الروم، في الترتيب والبناء في بلدة من البلدان، وأن ذلك عن المحاسن التي لبيت المقدس.

وفي الصدد نفسه، ذكر أن أهل القدس مصروفهم بصرف مصر والشام أي الإطار المملوكي في أراضي السلطنة كلها، وصرفهم في الدينار عشرون نقرة(٥) واحتساب مدينة القدس هو احتساب عمر بن الخطاب ينادي المنادي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله،

---

(١) الإدريسي (الشريف محمد بن عبد العزيز) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: القسم الخاص بالشام (بون)١٨٨٥م. ٤ ؛ ابو الفداء : تقويم البلدان ٢٢٨؛ ابن بطوطة: رحلة٥٦؛ muslim cities in the،Lapidus .. Cambridge university،later middle ages 1984.p.17

(٢) ناصر خسرو: سفر نامة ٤٦ ؛خليل بن شاهين: زبدة كشف٢٢؛. Suriano ، F. Treatise on the holy land، (Jerusalem).(ed)by fr. Theophilus Bellorini،1948.، p. 203-204

(٣) انظر الحنبلى: الأنس الجليل ٢ : ٥٠ .

(٤) مجير الحنبلي ٢ : ٤٠ ؛ على السيد: دراسات ١٧٥.

(٥) انظر: القلقشندي : صبح الأعشى ٤ : ١٩٩.

بأمر عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الشعير بكذا، وكذلك من أي شيء كان مما يُوزَن أو يُكال[١].

وكانت المعاملات التجارية في نيابة بيت المقدس تتم عن طريق المقايَضة أو بواسطة الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية المَسْكوكة في دمشق أو القاهرة أو في انحاء أخرى من دولة سلاطين المماليك، وهو الأمر الذى أكَّده القلقشندي عند ذِكرِه أن "معاملته بالذهب والفضة والفلوس على ما تقدم في معاملة دمشق.."[٢]، ومن ناحية أخرى ذكر أن رطل بيت المقدس خمسة أرطال من الرطل البغدادي والمصري[٣]، فقد شاع استخدام الرطل في أوزان بيت المقدس، وذكرت المصادر الرطل القدسي، الذي يعادل ٨٠٠ درهم[٤].

وهنا يجب أن نضع في اعتبارنا ما قاله ابن الأخوة عن ذلك بأنه لم يسمع "...أن بلدة وافق رطلها لبلدة أخرى أو قرية لقرية.." [٥]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تضمَّنت الرحلة الدور المهم للمحتسب أيضًا، الذي يُوكَل إليه الإشراف على التجارة الداخلية والأسواق والمكاييل والأوزان، ويمنع الغلاء والاحتكار والغش والتدليس[٦]، واللافت للنظر أن إشارة صاحب رحلتنا عن المحتسب توحي بأن التسعير كان دائم العمل به في أسواق سلطنة المماليك؛ إلا أن المعروف من المصادر التاريخية أن التسعير كانت الدولة تلجأ إليه أثناء المجاعات والأزمات الاقتصادية ، كإجراء اقتصادي، وكان يلقى بعض المعارضة من الفقهاء أحيانًا[٧] كما كان يأتي بعكس المرجو منه ، إذ تتفاقم الأمور ويختفي الخبز وتشتد بالناس المجاعة، فتضطر الدولة إلى الغاء التسعير[٨]. كان ذلك الطقس هو المعتاد العمل به في أرجاء دولة سلاطين المماليك ،أما إطلاق المدَجَّن ذلك

(١) الرحلة ١٩٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ : ١٩٩.

(٣) الرحلة ١٩٣.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى٤: ١٩٨، ١٩٩؛ ابن الأخوة (ت ٧٢٩هـ)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة الكتاب ١٩٧٦م. ٥١ ، ٨٢ وانظر المكاييل والأوزان الأخرى في بيت المقدس عند: القلقشندي :صبح الأعشى ٤ : ١٨١، ١٩٨، ١٩٩؛ فالترهنتس: المكاييل ٢٠، ٣٠.

(٥) ابن الأخوة: معالم القربة ١٦٣ .

(٦) الماوردي: الأحكام السلطانية ٢٤١ ؛ العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت. ٧٤٩هـ)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: سمير الدروبي. الأردن: منشورات جامعة مؤتة ، ١٩٩٢م١٢٥.

(٧) عن رأي الفقهاء في التسعير بالتفصيل انظر: محمد أحمد صالح: التسعير في نظام الشريعة الإسلامية، مجلة البحوث الإسلامية ع٤ ،١٣٩٨هـ . ٢٣٨ .

(٨) مزيد من التفاصيل انظر: مصطفى وجيه : الغذاء في مصر عصر سلاطين المماليك ، القاهرة: دار عين، ٢٠١٦م، ٣٢١- ٣٢٣.

على العموم ، فلا يمكن فهمه إلا في إطار حدوث أزمة غذائية أو غلاء وقت وجوده بالقدس، والمناداة آنذاك بالتسعير، وبما أن ابن الصباح لم يكتب رحلته إلا بعد عودته وبعدما كبر سنه وضعفت ذاكرته[١] فصار لا يتذكَّر إلا الحوادث التي تركت تأثيرًا، وظلت محفورة في ذاكرته .

وهنا تجدر الاشارة إلى أن كل ملحوظات ابن الصباح عن القدس، كُتِبَت بعد أن صارت بيت المقدس نيابة مستقلة؛ لأنها كانت قبل ذلك نيابة صغيرة تابعة لنائب دمشق، ثم استحدثت فيها النيابة سنة ٧٧٧ هـ [٢].

أما إشارته لتزيين الأسواق والحوانيت في الأعياد، وجعلها مفتوحة طوال الليل والنهار موقودة، وهو الأمر الذى اشتُهِرَت به كافة المدن الواقعة تحت حكم سلاطين المماليك. فذلك يشير إلى بيان أثر الأعياد والمناسبات المختلفة على أسواق المدينة عصر سلاطين المماليك، وهي مؤشر مهم وصادق على مدى تقدم المجتمع ودرجة ما يتمتَّع به من استقرار أمني واقتصادي وسياسي واجتماعي، حيث تنشط الأسواق بكامل أنشطتها في تلك المناسبات نتيجة التجمع الكبير فتزدهر حركة البيع والشراء طوال فترة الاحتفال، التي أشار ابن الصباح إلى أنها ثلاثة أيام في عيد الفطر وثمانية في عيد الأضحى، إذ أنها تخفي وراء مظاهرها سوقًا رائجًا للتجارة، وليس احتفالًا دينيًا فقط، فنجد التجار والباعة يتخذون من أصناف المأكولات مثلًا ما يلفت الأنظار، حيث نجد الأطفال عاكفين على تاجر معين، يجدون لديه حاجتهم واحتياجاتهم كما يتزاحم الشباب على تاجر آخر يجدون لديه ما يلى رغباتهم، وكذا الشيوخ والنساء وكل طوائف الناس كلٌ حَسَبَ حاجته ورغباته يبيعون ويشترون جادين بصورة تلفت الأنظار ، ومن هنا نجد أن تجمعات تلك المناسبات كخلية النحل كلها حركة دائمة في جميع الاتجاهات والجوانب، ومنها جوانب دينية واقتصادية وترفيهية عديدة، حيث يتم إحياء الذكرى مع الرواج السلعي للتجار، والترفيهي للرُّواد، وهذا ما شاهَدَه ابن الصباح ودوَّنَه لنا.

المكانة الإدارية لبيت المقدس في رحلة المدَجَّن عبدالله الصباح

وقد نال الجانب الإداري ببيت المقدس جانبًا من رحلة ابن الصباح، وذكر أن مدينة بيت المقدس عليها من المدائن الكِبار مدينة الرملة، ومدينة غزة، ومدينة عسقلان،

---

(١) قال ابن الصباح : "... واعلم أن كاتب هذا الكتاب الحاج المذكور هو شيخ كبير من أعمار الستين إلى السبعين، وكتبه بالأميرية(النظارات) من ضعف البصر .." الرحلة ٢٦٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ :١٩٩.

ومدينة الخليل، ومدينة عكة، ومدينة أريحة، ومدينة الكرك، ومدينة الشوبك " كلها في طاعة البيت المقدس الشريف"[١].

وكلام ابن الصباح هنا يحتاج إلى تمحيص؛ إذ تشير مصادر عصر سلاطين المماليك إلى أن القدس صارت نيابة كبرى في عصر سلاطين المماليك، بعد أن كانت ولاية في العصر الأيوبي[٢]، وفي ذلك يقول القلقشندي "القدس كانت في الزمن المتقدم ولاية صغيرة أو نيابة صغيرة مثل نيابة غزة، وهما تتبعان النيابة الكبرى دمشق حتى سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م ،صارت القدس نيابة مستقلة يحكمها نائب بعد أن كان يحكمها والٍ.."[٣] ومن المُسلَّم به أن نائب القدس كان يتولَّى تعيين أصحاب الوظائف الدينية والديوانية في نيابته، على اعتبار أنه كان يتمتَّع بصلاحيات إدارية على مستوى عالٍ بصفته "السلطان الثاني"[٤] في الدولة، يعيِّن من يشاء، ويعزل من يشاء في نيابته التي هي من أجل النيابات العربية الإسلامية في هذا العصر[٥] واتسعت نيابة بيت المقدس فاشتملت على كل من الرملة ونابلس والخليل[٦]، فالمرسوم السلطانى كان ينصُّ على تولية نائب بيت المقدس "نيابة القدس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس" [٧].

وربما جاء الخلط عند ابن الصباح في هذه النقطة رغم مجاورته ٤ سنوات من قراءة مناشير تولية نائب القدس التي تضمنت في بعض السنين ولايات أخرى غير الخليل والرملة ونابلس، مثلما حدث سنة ٨٤٠هـ التي ولى فيها الأمير طوغان من قِبَل السلطان برسباى ناظر الحرمين، ونيابة السلطنة بالقدس الشريف وبلد الخليل وكاشف الرملة ونابلس، ومتولى الصلت وعجلون، وأستادار الأغوار[٨]. فربما أُصدر مرسوم

(١) الرحلة ١٩١.

(٢) صبح ٤: ١٩٩، ٧ : ١٧٠، ١٢ :١٠٥؛ المقريزي: السلوك ٣ :٥٦٠؛ ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، (ت. ٨٥٢هـ) : ، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي. القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ٢٠٠٩م . ١ :١٥٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ :١٩٩، كذلك : ابن حجر: إنباء الغمر ١ : ١٥٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ : ١٧ ؛ السحماوي ،شمس الدين محمد(ت٨٦٨هـ) الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم :المعروف بالمقصد الرفيع للخالدي، تحقيق: أشرف محمد أنس . القاهرة: دار الكتب ، ط٣. ٢٠١٣م ١ : ٤٥١ يتبع.

(٥) لمزيد من التفاصيل راجع : علاء طه رزق :القدس في المصادر المملوكية المتأخرة (ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطى : أبحاث مهداة إلى أ.د: قاسم عبده قاسم بمناسبة بلوغه الستين من عمره، القاهرة : دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية ٢٠٠٩م.) ١١٥وما بعدها.

(٦) مجير الدين: الأنس الجليل ٢ : ٣٧٣ ، ٣٧٤.

(٧) المقريزي: السلوك ٤ : ٩٧٥؛ابن الصيرفي: نزهة النفوس ٣ : ٣٤٨.

(٨) مجير الدين: الأندلس الجليل ٢ : ٢٧٥.

مشابه لذلك وقت وجود ابن الصباح وتلقفته آذانه، وجعله قاعدة عامة، أو ربما كتب ذلك بناء على مكانة القدس في نفوس المعاصرين.

الأهالي وعاداتهم

وقد أثنى المُدَجَّن ابن الصباح كثيرًا على أهل مدينة الخليل، وقال عنهم إنهم قوم "... بدو، عملهم الحرث والنسل والزرع والحصاد، يكرمون الضيف ويشفقون على الغريب ،رجالهم ونساؤهم[١] وهم أعراب أحرار، قدماء في الحسب والنسب من وقت فتوح الشام.." [٢].

وذكر أن الطريق بين الخليل والقدس كله عمارة وقرى من النصارى الذِّميين تحت المسلمين، يطعمون المارة والمسافرين ليل ونهار، وهذا عليهم وعلى نصارى الشام[٣].

ونفس الشيء بالنسبة لأهل بيت المقدس في رحلته فدائمًا ما يشير إلى إحسانهم وكثرة صدقاتهم، والمنزلة الكبرى للمجاورين عند المقدسيين، وبالتالي نفس المنزلة للمقدسيين عند المجاورين، بدليل كثرة ثناء الرجل في مواطن كثيرة من رحلته[٤].

ومن العادات التي ذكرها عن أهالي القدس أن أهلها لهم كرم وإحسان إلى الغريب، وتضمَّنت إشاراته ثناءً على أهلها الذميين في كرمهم أيضًا ،وذكر أنه دار حوار عَقَدي بين ابن الصباح وبعض الرهبان، وفي نهاية الحوار عرض عليه الذمي الضيافة، وقال له: ".. يا حاج امشِ معي إلى دارى لأطعمك وأسقيك وأعطيك شيئًا من الزاد.." [٥] ، كما ذكر أنه أثناء تنقلاته في بلاد بيت المقدس مرَّ هو ورفاقه على قرية يقطنها نصارى كثير،

---

(١) وعن صورة المرأة الفلسطينية في الرحلات الأوربية انظر: Pilgrimage،p.205; Casola،op.cit،Suriano p.155.،once to Sinai،p.257-259; perscotte،to Jerusalem (ed) Margaret (Manchester) 1907

(٢) الرحلة ١٨٣. كان فتح بيت المقدس وما يجاورها سنة ١٥هـ على يد عمرو بن العاص وخلافة عمر بن الخطاب، وعن أحداث الفتح الإسلامي لبيت المقدس بالتفصيل عند: الطبري: تاريخ الرسل ٣: ٦٠٦-٦٠٨؛ الأزدي (محمد بن عبدالله) تاريخ فتوح الشام ،تحقيق: عبدالمنعم عامر. القاهرة،١٩٧٠م . ٢٤٧-٢٤٨، ٢٥٩؛ السيوطي (أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين السيوطي ت٨٨٠هـ : إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: أحمد رمضان. القاهرة، ١٩٨٢م ٢٣٢، ٢٢٩-٢٣٠، ٢٤٠.

(٣) كان التجيبي (ت ٧٣٠هـ) الذي قام برحلته للحج في عصر المنصور لاجين ذكر أن السلطان لاجين" اشترط على سكان ديور النصارى أن يضيفوا من مَرَّ بهم من المسلمين بما استطاعوا" التجيبي، القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (ت ٧٣٠هـ): مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور. تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥م١٧٥. ،١٩٧، ولا شك أن ذلك عمم في جميع بلاد دولة سلاطين المماليك وانظر : Les colonies franques de syrie aux XII et XIII ،89-90 1883Rey،p. 77.

(٤) الرحلة ١٨٩ ، ١٩٢، ١٩٣.

(٥) الرحلة ١٨٥ .

فذهب رفاقه يطلبون الخبز، وآوى هو إلى حائط من حيطان القرية حتى يأتي أصحابه بالطعام، فشاهدته امرأه مسيحيه ودعته للجلوس أمام بيتها في الظل يستريح حتى يعود رفاقه ثم "... دخلت بيتها وأخرجت خبزًا سخونًا، ولبنًا، حليبًا، وقالت: كُلْ يا حاج فكَسَّرتُ الخبز في اللبن وأكلتُ حتى شبِعتُ.." (١).

وهذه الأمور تشير إلى أن سكان بيت المقدس من المسلمين والنصارى كانوا يعيشون في ظروف واحدة، ومجتمع واحد، يتأثرون بأحداثه ويشاركون فيها، ويشتركون مع أهل الخليل والقدس المسلمين في عاداتهم وتقاليدهم(٢) .

الأوقاف وأثرها في حياة الغرباء

ليكن مدخلنا إلى معرفة قيمة ما كان يلقاه المسافر المحتاج من إطعام وإحسان وإنزال وإسكان في الزاويا والمدارس والمساجد بفضل الأوقاف والصدقات المخصصة للغرباء - ما ذكره المدَجَّن عبد الله الصباح بقوله "... جاوَرْتُ هذا البيت المقدس أربعة أعوام في طيبة عظيمة، وعبادة حسنة، وصمتُ فيه رمضانات بالفتوح الياسرة (الكثيرة) والكسوة والنفقة الواسعة، مع معرفة المشايخ الكرام والسادات العظام والفقهاء والعلماء والقراء، وكثرة الإنعام من فضل الله وبركه البيت المقدس المطهر أربع سنيين لا نعرف متى راحت عليَّ من طيبها..." (٣).

هذا النص الذي اقتبسناه من المدَجَّن الأندلسي في نهاية القرن الثامن الهجري يشير إلى ما حَظِيَت به مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك كما حَظِيَت غيرُها من المدن التي خضعت لحكمهم بكثير من أوجه الرعاية الاجتماعية، تعبير عن السياسة العامة التي سار عليها حكام هذه الدولة لترسيخ قيمة دولتهم، كَقُوَّةٍ مدافعة عن الإسلام والمسلمين في مواجهة الأخطار التي تعرَّضت لها البلاد، وفي نفس الوقت للحصول على تأييد المعاصرين لهم، وتغيُّر نظرتهم إليهم عن طريق تحقيق التكافل الاجتماعى ونجدة الملهوف، ومساعدة المحتاج، وترسيخ القيم الإنسانية، وتحويلها من عادات يحكمها العُرف إلى عمل منظَّم تحكمه قواعد وترعاه مؤسسات شرعية بما يتفق مع الشريعة الإسلامية، وهو ما عُرِف لدى الفقهاء باسم المصالح المرسَلَة التي تتحقق من

---

(١) الرحلة ١٨٥ .

(٢) Benvenist(m) The crusaders in the holy land ،new york، 1972 ، p.215حيث توجد مناقشة علمية عن أعداد المسلمين والنصارى في بيت المقدس بعد تحريرها من الاحتلال الصليبي، والتعايش بين أصحاب الديانات في القدس بعد تحريرها.

(٣) الرحلة ١٨٦.

جلب مَنْفَعَة للخلق، ودفع مَضَرَّة في الدنيا والدين[١].

وهذا الأمر أشار إليه العلامة عبد الرحمن بن خلدون بقوله:"... إن أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيُّون على القِدَم منذ عهد مواليهم ملوك بني أيوب بإنشاء المدارس لتدريس العلم، والخوانق لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب الصوفية السُنِيَّة في مطارحة الأذكار، ونوافل الصلوات ... فيختطون مبانيها ويقفون الأراضي المُغلَّة للإنفاق منها على طلبة العلم ، ومتدربي الفقراء، وإن استفضل من الريع شيئًا عن ذلك، جعلوه في أعقابهم خوفًا على الذرية الضعاف من العِيلَة ، واقتدي بسنَّتهم مَنْ تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة فكَثُرَت لذلك المدارس والخوانق ..."[٢] وكان ما أشار إليه ابن خلدون هو المتَّبع في كل البلاد الواقعة تحت حكم دولة سلاطين المماليك في مصر والشام والحجاز .

ووجد ذلك في نظام الوقف متنفَّسًا له، حيث يبادر الخيِّرون إلى وقف الأوقاف من مبانٍ وأراضٍ وغيرها على مختلف الأغراض الخيرية التي تعود على المجتمع بالخير العميم، وإلى حيث شيَّد الواقفون الكثير من المنشآت لتعليم الأيتام، وتعليم الكبار، والمساجد لإقامة شعائر الدين، والبيوت للصوفية لذكر الله تعالى، والبيمارستانات لعلاج المَرضَى، والأسبلة لتوفير الماء العذب لشرب الناس، والأحواض لشرب الدَّواب، وغيرها من وجوه البرِّ التي عاش بفضلها المدَجَّن صاحب رحلتنا ومن على حاله[٣].

وكما بيَّن ابن خلدون أن الذي أسهم في انتشار الأوقاف وتوفير حياة آدمية للمجاورين وأهل البلاد أيضًا هو حرص الواقفون على استمرارية المنشآت الوقفية في أداء مهامها سواء في حياتهم، أو بعد مماتهم؛ لذلك أوقفوا عليها الكثير من الأوقاف لينفق من ريعها عليها، وهكذا غدت الأوقاف الدعامةَ الكبرى لتنمية المجتمع ورعايته وتوفير مختلَف الخدمات الاجتماعية والصحية والدينية لأفراده، والنازلين عليه من الحجاج والمجاورين به من أمثال ابن الصباح، ولم تكن هذه الرعاية مسئولية الحكومة والحكام بقدر ما كانت مسئولية كل قادر من أفراد المجتمع[٤].

---

(١) للمزيد انظر: علي السيد علي: دراسات ٢١٣-٢٤٦.

(٢) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، تحقيق: محمد بن تاويت. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر، ٢٠٠٦م٢٩٧. .

(٣) انظر أيضًا عن ذلك : Fabri ،F. Voyage en Egypte de Felix Fabri ،j. masson (ed)(paris)1975، 2. p.57، (Paris)1888 ، J. Le voyage de outre mer de jeun thenoud، Thenoud،p. 460;

(٤) وقد تحدث بعض الرحالة الأوربيين عن كثرة الأوقاف الإسلامية على المؤسسات الخيرية بالقدس، منهم على سبيل المثال: Anselem ،Adorno A، Adorno: Itenraire d' Anselem Adorno en terr-sainte 1470-1471 p. 233 ، p. 186; Obodiah،p.251; mushullam، 1978،(ed)heers J. et Groer J. parise،D

لأن الأوقاف كانت خاصة ورسمية، فالخاصة يوقفها بعض الأتقياء والأمراء والأغنياء وربما بعض العامة، والرسمية تكون من قِبَلِ السلطان أو الحاكم للنفقة على بعض المنشآت الدينية والاجتماعية العامة[١]؛ لذلك قال ابن الصباح عن بيت المقدس : ".. مؤانسة للمجاور كثير الفلوس..."[٢]. كما قال ".. وداخل هذه المدينة رباطات وزوايا وأوقاف وأحباس على هذا الحرم المقدس يُطعمون المجاور له خبزتين، ورباط السلطان خبزة كل يوم، ورباط العجم دشيش بالصبح مطبوخ بالقديد ورباط خازن السلطان الظاهر[٣] ثلاثة أخباز، وزاوية القرندلية[٤] طعام يوم الخميس. والصدقات والإطعام في غير موضع شيء كثير.." [٥].

وهو هنا يشير إلى ما وجد في نيابة بيت المقدس من العديد من المؤسسات الخيرية، فالمسجد الأقصى وقبة الصخرة والمدارس الكثيرة والخانقاوات والأربطة والحرم الإبراهيمي في الخليل والمؤسسات الأخرى في "... المداين الكبار (التي) كلها في طاعة البيت المقدس الشريف.." كما أشار وأشرنا سابقًا[٦]. كل تلك المنشآت وقف عليها المسلمون الأوقافَ العديدة في مصر والشام. وكان ريع تلك الأوقاف يُرصَد للنفقة على تلك المؤسسات، لتُواصلَ دورَها الاجتماعي والاقتصادي، وشكَّل هذا دخلًا جيدًا لنيابة بيت المقدس، وشجَّع ذلك الاهتمام بالمؤسسات الخيرية التي كانت معدة لإيواء الغرباء بالمجان، والنفقة عليهم، من ريع الوقف عليها على كثرة المجاورين بالقدس في عصر سلاطين المماليك، فشكلوا جزءًا في البناء الاجتماعي لمجتمع القدس، فقد استقروا واندمجوا مع السكان الأصليين، وأدَّت الأهمية الدينية للقدس إلى زيادة أعدادهم،

---

(١) علي السيد: دراسات ١٠٥، وانظر أهمية المنشآت المعمارية في السياسة المملوكية عند: مصطفى وجيه مصطفى: احتفالات الحج المصرية عصر سلاطين المماليك ،القاهرة: دار عين ٢٠١٣م ١٤-٢٧.

(٢) الرحلة ١٨٨.

(٣) أمر الظاهر بيبرس بإنشائه عام ٦٦٢هـ، ووقف عليه عدة قرى ببلاد الشام والقدس لأجل إطعام الواردين من الفقراء والمساكين . ابن شداد(علي بن إبراهيم) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، بيروت،1963 م. ٢: ٢٣٧؛ المقريزي: السلوك ١: ٤٩١.

(٤) قال المقريزي إنها طائفة تنتمي إلى الصوفية، وتارة تسمي أنفسهم ملامتية ؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٩٦م٤. : ٣٠١-٣٠٢. وقد شاهد ابن بطوطة زاوية القرندلية بدمياط، وقال إنهم يحلقون لِحاهم وحواجبهم . ابن بطوطة: الرحلة ٣٠؛ ويكتنف الحديث عن حقيقة مؤسسها غموض ، وللمزيد من الأقوال عنها انظر: يونس السامرائي :تاريخ الطرق الصوفية، بغداد، ١٩٧٧م. ٤٣ وما بعدها .

(٥) الرحلة ١٩٤. وقد تناول ماتريكس فان برشيم منشآت القدس بتفاصيل تاريخية أثرية ثرية : Van Ber-chem،corpus inscriptionum (Jerusalem ville) le caire، 1922، p. 223، 226. 240.

(٦) الرحلة ١٩١.

بالإضافة إلى قرب المسافة بين الحجاز والقدس؛ الأمر الذي ساعد على عروج الحجاج بعد أداء الفريضة لزيارة مسرى النبي ﷺ .

القنوت[١]:

ومما لاحظه -ومؤكد- شارك فيه ابن الصباح بحكم وجوده سنين عدة هو قنوت أهل بيت المقدس، حيث إن " أهل بيت المقدس يقنتون في كل صلاة، إذا كان الخوف من قحط أو من عدو أو من نزول عدوى الطاعون بالبلد، ويزيد الإمام الشافعي: اللهم اهدنا فيمن هديت، وقنا شر ما قضيت، إنك تقضي بالحق ولا يُقْضَى عليك، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، وتُصَلَّي على النبي ﷺ، وقنوته بعد الركعة"[٢] .

---

(١) المقصود به قنوت النوازل ، وقال ابن تيمية : " القنوت مسنون عند النوازل ، وهذا القول هو الذي عليه فقهاء أهل الحديث، وهو المأثور عن الخلفاء الراشدين ".(مجموع الفتاوى ٢٣: ١٠٨) وهو تصديق لفعل النبي: فعن ابن عبّاس، رضي الله عنه، قال : " قنت رسول اللّه ﷺ شهرًا متتابعًا في الظّهر والعصر والمغرب والعشاء وصلاة الصّبح في دبر كلّ صلاة، إذا قال سمع اللّه لمن حمده من الرّكعة الآخرة يدعو على أحياء من بني سليم على رعل وذكوان وعصيّة، ويؤمّن مَنْ خَلْفَه " أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم كلهم، من طريق ثابت بن يزيد، عن هلال بن خباب، عن عكرمة عن ابن عباس به ، وهذا إسناد جيد . قال النووي : " رواه أبو داود بإسناد حسن أو صحيح " (المجموع ٣: ٤٨٢) . وقال ابن القيم : " حديث صحيح " (زاد المعاد ١: ٢٨٠) . وقال ابن حجر : " هذا حديث حسن " (نتائج الأفكار ٢: ١٣٠) وحسنه الألباني (انظر صحيح سنن أبي داود ٣: ١٤٤.

(٢) الرحلة ١٩٠: لم يكن القنوت فقط هو المتبع إذا ما ألم بالبلاد نازلة ، فقد تعددت الممارسات المشابهة من الدعوة كصيام ثلاث أيام، أو قراءة صحيح البخاري في المساجد، وختم القرآن، والاستسقاء ؛ لأنه في ذلك العصر لم يكن الناس يملكون إزاء كوارث الطبيعة ونوازلها سوى الاستسلام والتضرع إلى الله لكي يرفع عنهم مصابهم ،وكانت أساليب الدولة في معالجة هذه الكوارث متمشية مع روح العصر، بما تتسم به من قدرية وارتجالية ،وربما فيها من مفاهيم غيبية ، وفي غالب الأحوال كان الناس يفسرون هذه الكوارث تفسيرا دينيًا وأخلاقيًا خالصًا، فيرجعون أسبابها إلى غضب الله من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور، وسيادة الظلم ،وهنا يلجأ الناس حكاما ومحكومين إلى الدين يتسربلون بردائه، ويكثر اقبالهم على العبادة وتقوم الحملات التي يرأسها الوالي أو غيره أوكارَ الفساد، وبخلاف ما ذكره المدجن عبد الله الصباح من أن المقدسيين كانوا يقنتون في كل صلاة إذا توقَّعوا حدوث نازلة؛ كان الحكام سواء السلاطين في القاهرة أو النواب في نياباتهم يدعون الناس في أوقات الأزمة إلى الخروج إلى الساحات لصلاة الاستسقاء ، حيث يأمر السلطان أو نائب النيابة بخروج المحتسب ومعاونيه لإعلام الرعية بأنه قد تقررت إقامة صلاة الاستسقاء في يوم كذا ويحدِّد لهم مكانها . ثم تخرج الناس في موكب حاشد ومعهم القضاة والأمراء والعلماء والفقهاء، وجميع فئات الشعب إلى المكان المحدد، ويبدأ الوعظ والصلاة، ثم ترتفع الأصوات بالدعاء والاستغاثة والتضرع إلى الله تعالى ، ويستمر المشهد عدة ساعات وقد يتكرر خروج الناس إلى الاستسقاء أكثر من مرة .انظر أمثلة عن ذلك في: المقريزي: السلوك ٣: ٢١٨-٢١٩ ؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس ٣: ١٨٤ . وتوجد مناقشة تفصيلية عن ذلك عند: قاسم : دراسات ١٧٨-١٧٩؛ مصطفى وجيه مصطفى: الغذاء ٣٣٠.

وعن ترتيب الصلاة في المسجد الأقصى أشار إلى وجود سبعة عشر محرابًا في المسجد الأقصى، صلَّى فيها الأنبياء كلهم، أولها المحراب المالكي، والمحراب الشافعي، ومحراب عمر بن الخطاب، ومحراب زكريا، ومحراب يحيى بن زكريا، ومحراب إلياس، ومحراب داوود، ومحراب مهد عيسى، ومحراب باب الرحمة، ومحراب باب أسباط، ومحراب حطة الذي فيه قيل لبنى إسرائيل ﴿ ... وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ... ﴾ فأبوا [١]، ومحراب سليمان بن داود، وقبة داود، وقبة السلسلة التي كانت للحكم بين الناس زمن سليمان عليه السلام، وفي زمن ابن الصباح كانت تلك القبة فيها محراب وإمام راتب وهي شرقي الصخرة، ومحراب قبة المعراج من أين عُرج برسول الله إلى السماء، ومحراب الجماعة، ومحراب مُصَلَّى يوم العيد؛ لأن مُصَلَّى أهل مدينة القدس في وسط الحرم، ومحراب مريم بنت عمران مع نخلتها، ومحراب قبة موسى، ومحراب قبة السلطان ".. وهذه المحاريب كلها مرتبة بإمام يؤم فيها وسبعة منها هي بغير راتب مثل محراب المرهقين.." [٢].

ومما لحظه أيضًا، أن الصلاة في الأقصى لا تنقطع من بعد الظهر إلى أن تغرب الشمس، وأول من يبدأ بالصلاة الإمام المالكي، ثم الإمام الشافعي، ثم الإمام أبو حنيفة، ثم الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، رحمهم الله جميعًا[٣].

رمضان في بيت المقدس

لقد كان شهر رمضان في العصر المملوكي لحظة فريدة ومتكررة في حساب الأيام والشهور. وبقدر ما تحمله هذه العبارة من تناقض ظاهري، بقدر ما تنطوي على قدر كبير من الحقيقة؛ إذ أن الشهر المبارك لحظة زمنية فريدة؛ لأنه شهر لا مثيل له في أي تقويم لأية أمة من أمم الأرض عامة ،ولأنه لا يشبهه شهر من أشهر التقويم الهجري ، بصفة خاصة. كما أنه لحظة متكررة؛ لأنه يجيء في كل سنة في موعد مختلف عن الموعد السابق والموعد اللاحق، ولكنه يجيء دائمًا. وشهر رمضان شهر مدهش حقًا: فقد يأتي في قيظ الصيف، أو في برد الشتاء، أو في أيام الربيع والخريف، في كل الأحوال يفرح الناس به ويحتفلون بأيامه ولياليه. ويلفت النظر هنا أن الصورة الاجتماعية في فلسطين إبان شهر رمضان في عصر سلاطين المماليك - لم تكن لتختلف كثيرًا عنها في مصر، ومن المرجح أن علاقات القرب الجغرافي والقُربَى الثقافية والسكانية كانت، ولا

(١) الأعراف: ١٦١، الرحلة ١٨٩.
(٢) الرحلة ١٩٠.
(٣) الرحلة ١٩٠.

تزال، من أهم أسباب ذلك التشابه. وربما كانت الحقيقة القائلة إن مصر وفلسطين كانتا على امتداد معظم فترات تاريخهما كيانًا سياسيًا واحدًا- وراء تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية التاريخية[١] .

لهذه الأسباب ،ولأسباب أخرى غيرها،كان ابن الصباح يتجوَّل طوال الأربع سنوات التي جاورها في نواحي بيت المقدس وأجوارها، ويعود لبيت المقدس في رمضان ليعيش ذلك المشهد الديني والاجتماعي، ذكر ذلك بقوله:"...سِحتُ في جبال البيت المقدس أربعة أعوام، ونعود إليه في كل رمضان، نصوم فيه مع أهل مصر، وأهل دمشق، وأهل العراق، وأهل بلاد الفرس، وأهل بلاد الشمال..."، وفي يوم النصف من رمضان تفتح أبواب الحرم للمجاورين يدخلون بأولادهم ونسائهم يصومون بقية رمضان تحت الزيتون، إذ أنه شاهد بالأقصى اثنين وسبعين شجرة زيتون[٢]. والأمر المهم الذى دوَّنه عن رمضان في القدس في العصر المملوكي، هو أن كل من لا يقدر على حِج مكة يأتي يصوم رمضان في بيت المقدس، ويجاور حتى إلى يوم وقفة حِج عرفة، تجتمع أهل القدس مع المجاورين، ويقفون عند قبة الصخرة المنسوخة، يجعلونها بين أيديهم متوجهين إلى الكعبة، ويدعون ويبتهلون بالدعاء مثل أهل عرفة.

وكأنه يُجَوِّز ذلك فيقول: "... وقد قالت جماعة من أهل علماء الشام وعلماء بيت المقدس إنه حِجُّ الضعفاء والمساكين الذين لا يستطيعون الزادَ والراحلةَ والطريقَ السابلةَ، فإن حِجَّهم بيت المقدس للضرورة وعدم الطريق إلى مكة، فهو حِج الضعفاء ومجاورته وصيام رمضان، وشهود الخطبة فيه، وحضور الجمعة فيه حج الضعفاء، ودليلهم حديث عمر بن الخطاب "شهود الجمعة أحبُّ إلينا من تطوُّع حِج وعُمرَة" فإذا كان قول عمر رضي الله عنه يسري على عموم بقاع الأرض من أن شهود الجمعة أحب إليه من حج تطوع فأُولَى، وأخرى يكون حِج بيت المقدس المطهَّر حِجة مُجاور.." [٣] ولعلنا نلاحظ أنه يتحدث على طريقة سد الذرائع.

والجدير بالذكر أن المدَجَّن ابن الصباح لم ينفرد وحده بنقل هذه الصورة، فقد نقل الصورة نفسها بعض من سبقوه مثل : ناصر خسرو ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٧م الذي مرَّ بمدينة القدس في عصر النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ،وقال:" ويذهب إلى القدس في موسم

(١) قاسم عبده قاسم: رمضان بأقلام المؤرخين وعيون الرحالة، بمجلة العربي (الكويت) ،ع أغسطس٢٠١١م٥٧.

(٢) الرحلة ١٨٩ ، ١٩٢ .

(٣) الرحلة ١٩٢.

الحج مَن لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل الولايات "[١]، وقد فصَّل أبو بكر الطرطوشي نزيلُ القدس أيضًا في كتابه "الحوادث والبدع" الحديث عن تلك المسألة، ونَقَل أراء الأئمة في ذلك، ثم قال:"...ولقد كنت ببيَّت المقدس فإذا كان يوم عرفة حُشِر أهل السواد وكثير من أهل البلد ،فيقفون في المسجد مستقبلين القبلة مرتفعة أصواتهم بالدعاء، كأنه موطن عرفة. وكنتُ أسمع سماعًا فاشيًا منهم أن من وقف ببيت المقدس أربع وقفات فإنها تعدِل حجَّةً ... ثم يجعلونها ذريعة إلى إسقاط فريضة الحج إلى بيت الله الحرام..."[٢] وهذا دليل على صحة رواية المدَجَّن من ناحية ،كما يدل على اشتهار تلك العادة بين المقدسيين والمجاورين من ناحية أخرى.

العيد والاحتفالات

وقد شاهد ابن الصباح كيفية احتفال المقدسيين بالعيد، وأشار إلى أنه إذا كان يوم العيد يصلي الناس صلاة العيد في صحن قبة الصخرة، والرجال في الأمام، والنساء من ورائهم، وكذلك الجمعة الرجال في صدر المسجد الأقصى، والنساء من وراء الرجال وبينهم ستور من كِتَّان مصبوغ بالأخضر، والخدم واقفون حتى تنقضي الصلاة، وعلى كل باب من أبواب الأقصى وأبواب الصخرة طساس (جمع طاسة) من نحاس مبيضة بالقزدير، كأنها من فضة مملوءة بماء من ماء السماء بارد، والزلايف (طبق) على وجه الماء مرشوشة بماء الورد إذا شربت وجدت رائحتها كالمسك الأذفر، أي صاحب الرائحة الزكية.

فإذا فرغ الإمام من خطبة العيد نفرت الناس المجاورون لأوطانهم، والبدو تنتظر المجاورين بالجمال للكري، كل جمل على أرض مصر بأربعين نقرة بصرف مصر والشام. وينصرف المجاورون لأوطانهم: إلى دمشق، وإلى العراق، وإلى الشمال، وبلاد حلب، وديار بكر، وملك ابن عثمان إلى أقصى المشرق، يجاورون في هذا البيت المقدس من شهر رجب إلى شهر رمضان المعظم[٣].

وفي نفس السياق أكد على أن صدقات المقدسيين على الفقراء والمساكين لا تُحصى يوم العيد وطول رمضان، "...وقد أيقنَّا بأن صدقات يوم العيد في بيت القدس تَعدِل بصدقات أهل الأرض المحمدية كلها..."[٤].

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ٦٧.

(٢) الطرطوشي : الحوادث والبدع، جدة: دار الأصفهاني، ١٩٧٥م. ٩٧-١٠٠.

(٣) الرحلة ١٩٣.

(٤) الرحلة ١٩٣.

صورة الآخَر

ولم تخل الرحلة من الإشارة للآخَر ، وتظهر صورة الآخَر (المخالف في العقيدة) في رحلة ابن الصباح في ذكره النصارى واليهود مرات عديدة في أثناء حديثه عن ضلالهم مقابل عزة الإسلام في بيت المقدس، وكيف كان هؤلاء القوم يدفعون الجزية وهم صاغرون[١].

وكذلك اهتمامه بذكر الأماكن المقدسة ليس فقط الإسلامية، وإنَّما يذكر الأماكن المقدسة المسيحية واليهودية؛ فقد ذكر جبل الطور الذى نزلت فيه التوراة على نبي الله موسى - (- والذي كان يسكنه رُهبان نصارى وقت رحلته، وذكره لوادي موسى، وكنيسة صهيون موضع نزول المائدة على عيسى - عليه السلام - والمزارات اليهودية في القدس... وغير ذلك مما ذكرناه[٢].

كما تظهر صورة الآخر عنده في ظهور عواطفه الأندلسية التي عاناها في بلاده من قهر المحتلين الكاثوليك، وهو يصف المشاهد المشهورة في الخليل ووادي حَبرون "... المذكور في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.. وما به نفتخر على جميع الخلق من الطوائف، فإذا ذكر ووصف ترى جميع النصارى واليهود تتقهقر على ملكية أهل الإسلام له بالسيف والقهر، وببركة سيد البشر وصارت اليهود والنصارى تحت الذِّمة والجزية والذل والصَّغار.." [٣].

وقال إن كنيسة قمامة (كنيسة القيامة) يُعطَى عليها ويدخل إليها النصارى على كل رأس[٤] ثم تحدث في موضع آخر عن مخالفة اليهود والنصارى لأوامر الله تعالى، فكان نصيبهم المذلة ليوم الحشر ".. وكيف لا ، وذلتهم بأداء الجزية وأداء الخراج حتى على قمامتهم (كنيسة القيامة) وحِجُّهم أيضًا يؤدُّونه بالقهر.." ويتفاخر بأن أهل الذِّمَّة في بلاد سلطنة المماليك لا يتقلَّدون سيفًا ولا يركبون سرجًا ولا يلبسون عَمامة بيضاء[٥].

وفي الصدد نفسه، أشار إلى أن اليهود عند زيارة مقدساتِهم في القدس ".. لا بد أن يضعوا إلى أهله - أي القائمين عليه - من المسلمين الهدايا من الذهب والفضة والدراهم الكِثار، وجميع اليهود والنصارى ينظرون إلى هذا البيت المُقدَّس نظرة

(١) الرحلة ١٩٥.
(٢) الرحلة ١٨٢.
(٣) الرحلة١٨١.
(٤) الرحلة ١٨٢.
(٥) الرحلة ١٩٢.

الحسرات كمِثلِ حَسرَة أهل النار الذى أيسوا من الرَّحمة ورِضاء الرب وجنة الخلد، وأيقنوا بسخط الجبَّار، وجميع طوائف الكفر ينظرون إليه بحَسرة ونَدامة تفيض أعينهم دمعاً يطفئ ما يوقد في آفاق الأرض من نار، أخرجهم الله ملعونين على أيدى صحابة الهُدى، وقدوة الأشداء، وقلوب الرحمة الذين أذاقوا اليهود والنصارى بأيديهم العذاب الأدنى، وأورث الله بيت المقدس عباده الصالحين المطيعين من هذه الأمة ببركة النبي الشريف سيد العرب والعجم، وتقوم كلمة الله ودينه المرتضى إن شاء الله إلى يوم الحشر، والقضاء بالقوة والكرم العميم والفضل الجسيم إلى آخر المنتهى.." (١).

وقال: " .. لم يتبقَ للنصارَى مزار إلا القمامة وبيت لحم الذى وُلِد فيه عيسى ابن مريم، وهو بين القدس والخليل يعظِّمه النصارى ويعطون عليه الخراج، وكنيسة صهيون موضع نزول المائدة، نزلت على عيسى فامتنع اليهود من أكلها فمسخهم الله خنازير.."(٢).

والجدير بالذكر أنه لم ترد صورة الآخَر النصراني المرموز إليه بالصليب على وتيرة واحدة من الوصف، وهو اظهار الجوانب السلبية في معطيات حياته، فنجد هناك إشارات دالة على جوانب إيجابية، ومن ذلك ربط صاحب الرحلة علاقات وطيدة مع "كثير من أحبار اليهود ورهبان النصارى في الشام.." وطلبوا منه وصف الكعبة ففعل، وطلب منه بعضهم الدعاء له، وهو الحاج صاحب البركة، فاحتار في كيفية الدعاء ،ولكنه تفطَّن في نهاية الأمر، وقال:(٣) " .. اللهم أمته على خير الأديان، فجرَّ يده على وجهه، وقال: آمين.."(٤). والتقى كذلك بامرأة ببيت المقدس، أُعجِبَ بجمالها، فاعترفت له بأنها نصرانية، وأثنى على إحسانها للغرباء، وأطعمته خبزًا ولبنًا، وطلبت منه أن يدعو لها ولأبنائها، فدعا لها بمثل دعوته للرُّهبان(٥).

وهكذا نلاحظ أن الآخَر الديني نال حضورًا بارزًا في رحلة ابن الصباح، وشكَّل ركيزة مهمة في بناء الصورة الكلية للآخَر، وأساسيات تعامله وملامح حياته بشكل عام، وتتوغَّل صورة النصراني الذى نال السلب والمؤامرة وسوء المعاملة حيزًا لا بأس به في نفس ابن الصباح، وتتعاظَم درجةُ النفور من سلوكياتهم ومعاملاتهم، فهم المغتصبون للأندلس الإسلامية، المعتدون على حدود الدين.

---

(١) الرحلة ١٩٥ - ١٩٦.
(٢) الرحلة ١٩٦.
(٣) الرحلة ١٨٥.
(٤) الرحلة ١٨٥.
(٥) الرحلة ١٨٦ - ١٨٧.

ويجب أن نضع في اعتبارنا أنه إذا كان ابن الصباح في رحلته قد تعامل مع الآخر النصراني واليهودي باعتبارهم كُفَّارًا ،فإن ذلك لم يكن إنكارًا لليهودية أو المسيحية نفسها، وإنما كان يعكس التعامل مع الصليبيين المغتصبين للأندلس الإسلامية، ومعاونيهم من اليهود باعتبارهم "أعداء" من ناحية، وكفار من ناحية أخرى، وقد وردت عبارات مثل: "الكفار" و"خذلهم الله"، أو الإفرنج لعنهم الله، أو العدو المخذول ،في كافة المصادر العربية المعاصرة لرحلة المدَجَّن، أو التي كتبت عن أحداث الحروب الصليبية في الشرق والغرب الإسلامي بمراحلها المختلفة ،لقد كان طبيعيًا أن يتعامل المدَجَّن مع النصراني المغتَصِب من موقف عدائي ،كما أن التكفير كان متبادلًا بين الطرفين[1]، كما أن رحلة المدَجَّن لم تخلُ من السمة الموضوعية التي افتقرت إليها كتابات الرحالة الأوربيون؛ فإن ابن الصباح لم ينسب للديانة المسيحية أو اليهودية شيئًا سلبيًا؛ لأنه مِثْلُه في ذلك مثل باقي المسلمين، يعرفون أنبياء الله موسى وعيسى ،باعتباره نبيًا ورسولا، وليس إلهًا، كما اعترفوا بمعجزاته التي أوردها القرآن الكريم ويبجِّلون السيدة مريم" أفضل نساء العالمين"، وإنما انصبَّ عداؤه على المعتدين الذين هاجموا ديار الإسلام في مشرقه ومغربه.

ولاشك أن حالته مع إخوانه المدَجَّنين- وهم تحت النفوذ الكاثوليكى- ذكَّرَته بحالة النصارى واليهود في بيت المقدس تحت حكم دولة سلاطين المماليك ،أقوى دولة إسلامية آنذاك ،وحاضرة الخلافة، وحامية الحرمين، فنراه - عن طريق التعويض النفسي - يشير إلى عزِّ الإسلام وعظمته، وإلى رضوخ أصحاب الديانات الأخرى لحكام المسلمين بدفع الجزية لهم عن يد وهم صاغرون، وفي نطاق هذه النظرة التمجيدية ما فتئ صاحب الرحلة يذكِّر إخوانه المدَجَّنين بأهم فترات التاريخ الإسلامي الزاهية. فعمد إلى التأكيد على بعض المظاهر الدينية التي كانت الغاية منها تمجيد الإسلام وتعزيزه في نفوس أهله من المدَجَّنين.

ولعل السؤال الذي ينبغي الإجابة عليه هنا هو: إذا كان مفهومًا لدينا الدافعُ لصورة النصراني الذى نال السلب والمؤامرة والنفور والاشمئزاز في رحلة المدَجَّن ابن الصباح ، وذلك بسبب الوضع الذى صار إليه المسلمون في الأندلس، والممارسات الإجرامية من جانب النصارى في حق مسلمي الأندلس... فلماذا هذه الصورة عن اليهودي بالرغم من أن اليهود لم يمتلكوا بلادًا، ولم تنفرد لهم دولة مستقلة؟؟

(١) انظر الصورة المتبادلة بين الطرفين عند: أندرو هويتكروفت :الكفار :تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام ،ترجمة: قاسم عبده قاسم .القاهرة: المشروع القومي للترجمة ٢٠١٣م . ٥٢٧-٥٧٢.

الإجابة على ذلك تقتضى ذكر توضيح مبسَّط لحال اليهود في الأندلس الإسلامية، التي هي مولد وموطن عبد الله الصباح. فالمعروف تاريخيًا أن أول استقرار لليهود في شبه الجزيرة الأيبيرية كان في ق ٦ ق. م، وقد نُقِلوا إليها أسرى مع ملكها إشبان بعد أن شارك مع نبوخذ نصر في فتح القدس(١).

وعاش اليهود في إسبانيا تحت حكم العديد من الأقوام، وكانوا في معظم الأوقات مكروهين، بسبب تكبُّرهم على الأمم الأخرى (الأغيار)، واستحلال أكل أموالهم بالباطل، واستهزائهم بمعتقداتهم. وكان الأشد قسوة على اليهود هم القوط الكاثوليك، إذا استعملوا طرقًا عدة لإجبارهم على التنصُّر، وعندما فشلوا حولوهم جميعًا إلى عبيد لهم(٢).

لذلك جاء الفتح الإسلامي للأندلس مُخلصًا لليهود، ومنقذًا لهم من العبودية والانقراض، فسمح لهم المسلمون بالسكن في قصبات المدن الأندلسية، بعد أن حرمهم القوط من ذلك(٣)، وساووهم بأبناء القبائل العربية المسلمين عندما جعلوا لهم أحياء خاصة بهم في مدن الأندلس، ولم يجبروهم على العيش داخلها، بل أتاحوا لهم متى شاءوا أن يقيموا بين ظهراني المسلمين، مجاورين لهم في مساكنهم(٤).

وطوال القرون الثلاثة الأولى من الحكم الإسلامي للأندلس، وهي زمن قوة المسلمين، أظهر يهود الأندلس الطاعة والولاء للسلطة الإسلامية(٥). ولكن عندما ضعفت السلطة الإسلامية في عهد الطوائف وفي العهود اللاحقة، وازدادت قوة النصارى

(١) سفر الملوك الثاني : ٢٤: ٢٦، ٢٤: ١٥؛ الطبري: تاريخ الرسل ١: ٥٣٦؛ البكري: المسالك والممالك، القسم الخاص بالأندلس وأوروبا ، تحقيق: عبد الرحمن الحجي . بيروت: دار الرشاد ط١ ١٩٦٨م) ١٠٩ - ١١١؛ الرشاطي (أبو محمد ت٥٤٢هـ) الأندلس في اقتباس الأنوار وفى اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق: إيميلو مولينيا، وخاثينوبوسك بيلا. مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية. ١٩٩٠م. ١٠٢. A:،Malamat ،The last wars of the kingdom of Judah in: J N E S، 1950.9، pp.223-224، 401 وانظر ما ذكرناه سابقًا في هذا الشأن : المزارات في القدس.

(2) DubNov, History of the Jews from the roman empire to the early medieval period ,new york ،1973، vol 2، P. 519- 523; Broyde، ISAAC.. SPAIN: The Jewish Encyclopedia،new york 1901، vol. 11،484- 485 .

(٣) ابن الخطيب(محمد بن عبدالله التلمساني ت٧٧٦هـ): الإحاطة في أخبار غرناطة ٤ أجزاء، تحقيق: محمد عبد الله عنان. القاهرة: الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣م. ١ ق١ : ١٠١.

(٤) مجهول ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبيارى. القاهرة: دار الكتاب المصري،١٩٨١م، ص ٢١-٢٣، المقري(شهاب الدين أحمد التلمساني ت ١٠٤١هـ) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس . بيروت: دار صادر، ١٩٨٨م ١ . : ٢٦٩.

(٥) انظر:عبدالله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، بيروت: دار النهضة العربية ١٩٧٩م١١٧. Ashtor: ،The Jews of moslem spain (phlladelphia) 1979، vol 4، P. 34، 69 - 80

الإسبان، كثرت مؤامرات اليهود على المسلمين، وزدات خياناتهم ونقضهم لعهودهم وتجاوزاتهم على الإسلام والمسلمين[١]. وذلك بعدما خرج بعض حكام الطوائف عن المنهج الإسلامي في التعامل مع اليهود، فقرَّبوا عددًا منهم، وسلَّموهم مناصب حكومية مهمة في دويلاتهم، وصلت أحيانًا إلى منصب رئاسة الوزارة مثلما حصل في غِرناطة في عهد باديس[٢]. وهو ما شجَّعهم على الإفادة من مناصبهم في خدمة اليهود داخل وخارج الأندلس؛ ممَّا أدى إلى تعرض حكام الطوائف الذين قرَّبوا اليهود ونصَّبوهم، وسلَّطوهم على رقاب المسلمين لانتقاد العلماء ونقمة جماهير المسلمين.

وكانت النتيجة تعاسة على كل من المسلمين واليهود، حيث عانى المسلمون من ظلم وتسلُّط اليهود، مع أنهم يعيشون في دار الإسلام، وتحت حكم المسلمين، وعانى الحكام من مؤامرات اليهود عليهم؛ حتى أن اليهود حاولوا في عهد الطوائف إقامة دولة يهودية في مدينة المرية، حين اتفق الوزير اليهودي يوسف بن اسماعيل بن نغداله مع حاكم المرية ابن صمادح، على تسليمه غِرناطة، مقابل تنازل ابن صمادح عن المرية لابن نغذله؛ ليقيم فيها لليهود دولة، وعندما علم مسلمو غِرناطة بذلك ثاروا على اليهود، وقتلوا ابن نغذلة وكثيرًا من أعوانه، وأفشلوا المحاولة[٣].

ليس هذا فحَسب، بل لم يُقدِّر يهود الأندلس إحسان المسلمين إليهم[٤]، وكانوا يشاركون النصارى الإسبان في التنكيل بمسلمي المدن الأندلسية المحتلة، ويدعمونهم بالمال في حربهم ضد مسلمي الأندلس، ويشاركون في القتال معهم في بعض الأحيان[٥].

---

(١) ابن عذارى (أبو عبدالله محمد المراكشي ت ٧١٢ تقريبًا): البيان المغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب، ليفي بروفنسال، وكولان. بيروت: دار الثقافة) د. ت ٣ :٢٦٤، ٣١٤؛ ابن خلدون : العبر٤ : ١٤٩-١٥٥ ، الشنتريني (علي ابن بسام ت٥٤٢هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة ١٩٧٩م. ١ م٢: ٧٦٦.

(٢) ابن الخطب : الاحاطة ١ : ٤٣٨ - ٤٣٩، أيضًا: أعمال الإعلام، القسم ٢، تحقيق: ليفي بروفنسال، بيروت: دار المكشوف ١٩٥٦م. ٢: ٢٣٠؛ ابن عذاري: البيان المغرب ٣ : ٢٦٤.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٣ : ٢٦٦، وهو الوحيد من المصادر الإسلامية الذى ذكر صراحة أن يوسف كان يريد إقامة دولة يهودية فى المرية، أما المصادر الأخرى فرجحت من خلال ممارساته. ابن سعيد (الأندلسي،علي بن موسى ت ٦٨٥هـ) المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف. القاهرة: دار المعارف ١٩٤٦م٢. : ١١٤ ، ترجمة رقم ٤٢٦، ابن الخطيب: الإحاطة ١ : ٤٣٨ ، ٤٣٩.

(٤) the jews, vol 2،Ashtor ، انظر بعض مظاهر ذلك عند : 178-179. P. 182

(٥) انظر عن مشاركة اليهود للنصارى: ابن الأبار (محمد بن عبدالله القضاعي ت ٦٥٨هـ) : الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس . القاهرة: الشركة العربية للطباعة ١٩٦٣م. ١ : ٤٢٢ ترجمة ١١٩٨؛ ابن عذارى: البيان المغرب ٤ : ٤١؛ ابن السماك (العالمي،محمد بن أبي العلا ت ق٧هـ): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار. الدار البيضاء: دار الرشاد ١٩٧٩م. ٥٧؛ الحميرى: الروض المعطار ٢٨٩-٢٩٠: P. 486. 11. vol. the jewish Encyclopedia. Seville.BRoyde

وبما أن ابن الصباح كان أحد هؤلاء المسلمين الذين شاركوا في الإحسان إلى اليهود في الأندلس الإسلامية، وذاقوا مرارة ذلك الإحسان من قبل اليهود، ومشاهدته مشاركة اليهود للنصارى في العمل على هلاك دولة الإسلام في الأندلس[١]، والعمل مع نصارى إسبانيا جنبًا إلى جنب في إذاقة المدَجَّنين - وابن الصباح منهم - الوَيلات من التضييق والاجبار على التنصر والقتل... وغير ذلك؛ ومشاهدته وضع اليهود والنصارى تحت حكم دولة سلاطين المماليك وقوة المماليك، وشدة قبضتهم على الأمور، وما كان يُلزموه سلاطين المماليك لليهود والنصارى - أحيانًا- من ضرورة الالتزام بالشروط العُمَرية، فما لا شك أن ذلك ساعد في شفاء قلبه مما به من هؤلاء، وما يذيقوه لإخوانه في بلاد الدجن.

وهكذا، فقد رسمت رحلة ابن الصباح صورًا واشكالاً متنوعة للآخر، حملت في إطاراتها كثيرًا من ملامح الآخر المُسلِم ببيت المقدس والخليل ، وطبيعة حياته، وأسهَمَت بشكل لافت في إدراج الأندلسيين ضمن المنظومة الكَونية من خلال الانفتاح على الآخر المسلم البعيد، ونقل عدد من عادات وتعاملات الشعوب خارج الحضارة الإسلامية وداخلها، ممَّا أسهم في تفتيح عيون المسلمين وتوسيع مداركهم، ومدى أفقهم، وهنا استطاع ابن الصباح أن يشارك في رسم خريطة التاريخ، ويقدِّم للأجيال المتعاقِبة صفحاتٍ من تاريخ البلدان، فزخرت رحلته بكثير من الأحداث التي كان لها شأن في التأثير في أبناء ما تَبِعها من أزمان، ممَّا جعلها تدخل في عِداد المصادر التاريخية ذات الغَناء الفكري للمؤرخين والدارسين.

وخِتامًا: فإن ممَّا لا شك فيه أن هذا الرَّحَّالة نقل لنا بصفة عامة صورًا حيَّةً وصادقة عن المدن والمجتمعات الإسلامية في المشرق العربي،وعن عادات السكان وتقاليدهم ،ونُظُمِهم الاجتماعية ،وذلك نهاية القرن الثامن الهجري. وقد كانت الخليلُ وبيتُ المقدس بالفعل تمثِّل إحدى الصور المهمة لهذه المجتمعات الإسلامية التي كان تركيز المدَجّن عبد الله الصباح واضحًا فيها على تصوير علاقات الناس وأحوالهم مع أنفسهم من ناحية، ومع تصوير علاقاتهم بالآخر من ناحية أخرى .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٤ : ٤١؛ يعقوب الحسين: قصائد غير منشورة في الاستصراخ والإصراخ، مجلة دراسات أندلسية، ع ٥ ١٩٩٠م. ٨٠.